
الوهج
رواية
أماني خليل
رَوافِد

الوهج

خليل، أماني

الوهج / أماني خليل

القاهرة: روافد للنشر والتوزيع. 2012 ط 1

111 ص ؛ 20 سم

1- رواية

2- العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813 .008

رقم الإيداع 2012/15604

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 6370 -65- 4



روافد للنشر والتوزيع

القاهرة (ج م ع)

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

لوحة الغلاف للفنان: هوجو أرلشر

تصميم الغلاف: غادة خليفة

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

الوهج

روايـة

أماني خليل

إهداء أول

إلى كل النساء اللاتي صنعن بما أعتقد أنه فشلهن، ما أظنه نجاحي!

إهداء ثان

إلى مدينة الخليل ـ مسقط رأس جدي السادس

عبد الرحمن خليل ـ المدينة التي لم ولن أراها.

وميض

(١)

انطفأ وهج النجمة التي تشق ظلام السماء في مواجهة نافذة ريم منذ أكثر من ليلة. ومع البياض المنسكب من بحر السماء الممتد بلا نهاية، ومع بزوغ الفجر انطفأت باقي النجمات تباعاً، السماء الخريفية الصافية سمحت لذلك الوهج المُؤنِس المُحبَّب أن يستمر إلى وقتٍ طويل، إنها ليست بضع نجمات يمكن عدّها، ليست عشرات، بل آلاف النجمات التي تطل عليها شرفة ريم، أين ينتهي يا تري بحر السماء أين هي النهاية؟ أيمتد ذلك الكون السحيق إلى حواف وبعدها فراغ؟ ماهو الفراغ؟ هل هو خلو الكون من الأجرام والنجوم؟ أم هو تلك الوحدة المميتة؟ أن ترزح كل نجمة وحيدة تحت وطأة ذلك المسار اليومي بين الاشتعال والانطفاء. لا يشهد حياتها أحد ولا يحضر رحيلها أحد، أن تبقى النجمات تستصرخ أحدهم كي يراها بينما يراقب المارة أرصفة الطرقات الصامتة الصلدة التي تهترأ تحت وطأة أقدامهم يومًا بعد يوم ولا يلقون بالاً. تراقب ريم ذلك الميلاد والموت اليومي لنجماتها بينما لا تملك إلا أن تودع وهج نجماتها الوحيدات، اللاتي يقتلها نور الصباح كل يوم!. ويبقى في خيالها بين اليقظة والنوم أكوام من الأسئلة تعلو يومًا بعد يوم.

زادت حدّة الصراخ المُنْبعث من شقة الجيران الجُدد، أصوات سباب وتكسير حادة، ثم بكاء ونشيج قوي يعلو ثم يهدأ، ويتقطع ثم يتواصل أحيانًا لعدة دقائق متوالية.

أغلقت نوافذي جيدًا، وأحكمت إسدال الستائر، المعركة في الجوار

أفسدت الاستمتاع بطقوس الصباح بعض الشـيء، الاسـتحمام ثم الجلـوس لسماع الموسيقى، والوحدة التي اتدثر من وحشتها بجدران البيت وستائره! فراغ كبير يملأ روحي، قدر هائل من الفراغ.. قدر هائل لا أكـاد أتحملـه، ذلـك الإحساس بالوحشة. يتملكني ذلك الشجن الخفي، إحساس بالخوف والرهبـة. تتسارع دقات قلبي، الساعة المثبتة على الحائط ذات العقارب الكبيرة تعلـن أن دقات قلبي أسرع كثيرًا من المطلوب، تعلن أن هناك ما يدعي خفقـان زائـد، ضـربات غاضـبة تـدق دونمـا إذن. وربمـا هـو إحسـاس باللوعـة! نعم هذا هو المعنى تماماً الذي أقصده. إنه خليط من الخوف والشجن والقلـق الخفي والبرودة والتوتر غير المفهوم، ينتج مركبًا جديدًا من المشاعر المختلطـة. إنها لوعة الصباح. ربما هي تلك الأيام التي تستعد تلك البويضة للإنطلاق مـن أحد تلك الأجزاء إلى جزء آخر من ذلك الجسد ربما تنفجر هنا أو تنزلق هناك أو تحاول أن تتمرد على طريقها المحتوم أو تكمن في حذر لعلّها تواصل عبثهـا بمعدلات الهرمونات أو بكيمياء المخ. وقد تكون البويضة مظلومة تمامًا، لعلـها تلك الأفكار التي تنطلق ليلاً للتسكع في دهاليز رأسي عن الأمـل، واليـأس، واللاجدوى، والانتقام، والهجر، والفراق، والعذاب والتجاهل! أحـلام يقظـة تتشابك وتتواصل بكوابيس الليل صانعة فيلمًا خياليًا (هيتشكوكياً) مبتورًا. تلك الرؤى والنداءات الخفية التي تدق بأحذيتها الثقيلة طرقات روحـي الموحشـة، هناك في البعد السحيق.. نعم البعد السحيق لروحي أتلقى تلك السياط الموجعة، أتلقى ذلك الوهن والانهزام اليومي، حيث أواجه وحدي ذلك القدر البـائس وأصّف أسئلتي عن الكيف والأين واللماذا؟ والإلى متى... النساء يعرفن جيـدًا عمَّا أتحدث، النساء اللاتي يصعدن الجبل، من أجل الحبل، كل شهر وينزلنـه، النساء اللاتي اعتدن السعي للمسافات الطويلة بلا جدوى. يغدوْن ويذهبن. ثم يعدن للغدو والروحة من أجل جلب الرجل. ثم من أجل إنجاب الولد منـه. ثم

من أجل إطعام الولد وأبيه. ثم من أجل جمع أشلاء الرجل المغدور لترتاح روحه، ومن أجل الانتقام من قاتليه كما تحكي آلاف الأساطير والحكايات الشعبية والميثولوجيا الدينية التي طحنت عظام رؤوسنا عن عذابات النساء التي لا تنتهي! أحب تلك البقعة الساخنة من الأرضيه الخشبية "الباركيه" التي تعمل عليها أشعه الشمس المُنْسَابة عبر النافذة الزجاجية من الصباح الباكر لتمنحها سخونة محببة. في هذا الوقت من العام، والربيع تسلل من باب الشتاء المنصرم، قبعت فوقها كهرّة غاضبة للعناية بأظافر قدمي، نقعتهما في الماء الساخن ثم فركت الجلد الزائد، طليتها، هذّبتها ورطّبتها بالكريم ملتمسة بعض الدفء والهدوء..

الآن كل هذا لم يعد متاحًا بسبب إزعاج الجارة الملتاعة، أُسدلت الستائر فعادت الأرض باردة. تمتمت لاعنة كل الذين يبدأون صباحاتهم بمثل ذلك النحيب، الغريب أن ما يشغلني الآن متى وكيف نشبت المعركة؟!

ظننت أن أمرًا حميميًا قد حصل بالأمس بين الزوجين، يظهر ذلك من سيارة الزوج التي عادت مبكرًا في الليلة السابقة. أكياس الطعام والفاكهة التي أحضرها بنفسه. حيث تعودت الزوجة على تولي تلك المهمة، يظهرذلك من ضلفتي البلكونة اللتين أُغلقتا في غير موعد إغلاقهما المعتاد. ثم من الزوج الذي خرج قرب الفجر ليشرب سيجارة وحيدًا بفانلة داخلية بيضاء وبنطلون بيجامة من اللون الكحلي فاردًا ساقًا وثانيًا الأخري على سور البلكونة ليدخل بعد انتهاء السيجارة مرة ثانية إلى الغرفة.و من شكل الملابس المصلوبة على حبل الغسيل، والتي تنزف مياهًا على العابرين أسفل النافذة، وكما تشي بذلك تلك الفوطة التي تلف الجارة بها شعرها أثناء نشرها الغسيل منذ قليل، الراديو الذي يصدح ببرامج الصباح الحماسية، الآن صمت كل شيء إلا صوت العراك الذي نشب لسبب غير مفهوم. وتحوَّل صوتها إلى كمان مشروخ، وحشرجة متقطعة

لا تشي بمعرفة ما حدث وكيف اشتعل فتيل المعركة؟! يُعيننا التلصص على تدريب خلايا المخ واستغلال قدراته الكامنة في التخيل والتحليل والتذكر، بعض التلصص يؤنس النساء في وحدتهن ويعينهن على عشرة جدران البيوت الصامتة!

أحيانا يغزل الملل صباحاتي بلون محايد باهت، اليوم تحديدًا في هذا الصباح الربيعي، قبل انسحاب الشتاء حازمًا حقيبته نحو عالم آخر وبلاد بعيدة. زادته سوءًا حالة الضبابية في الجو بسبب احتجاب الشمس خلف الغيوم!

ذهب "حسام" لعيادته بوسط المدينة، وذهب "كريم" إلى المدرسة. ولم أتلقَ المكالمة الصباحية من هالة في شركتها السياحية إلى الآن.. تجولت في أرجاء البيت بغير هدف. طعام الغذاء الذي سبق طهيه الليلة السابقة ينتظر تمام النضج داخل الفرن. والغسالة الكهربائية تدور وتدور صانعة دوامات من الرغوة البيضاء. تدور في الواجهة قطعتان من ملابسي وملابس حسام خلف الواجهة الزجاجية للغسالة الكهربية. مثلما امتزجنا في الليلة السابقة.. شلالات من الماء المختلطة برائحة جسدينا وعرقهما، وعطورهما، نداوة مع بقايا من مَنِيِّ. هذا هو الامتزاج الأخير لهما قبل أن تفترقا في النهاية، حيث تواجه القطعتان أشعه شمس وحيدتين كما يواجه صاحبا الملابس مصيرهما منفردين!

الآن مرت ساعة.. وهدأت الجارة الباكية، يمكن فتح النافذة مجددًا..

بدأت في الشعور بالسأم، قطعة "البونبوني" التي ألوكها لن تصنع فرقًا. بقي أكثر من ساعتين على عودة كريم من المدرسة، قررت في تلك اللحظة أن أمر على هالة لتهنئتها بانتقال ملكية الشركة السياحية التي تعمل بها إليها. كما يمكنني المشي قليلاً على شاطىء البحر والاستمتاع بمراقبة هواة الصيد بالسنارة على شاطىء ستانلي، أو ركل الحصوات على الرصيف، وقد أدس الـ "إم بي ثري" في طيات ملابسي وأسمع الموسيقى أيضًا. ملقية نظرات ساخرة على عيون المارة المستنكرين.

أحب التسكع تحت أشعه الشمس، خصوصًا حين تكون حنونة في فصل الربيع، ولابد أنها الكائن الأعظم الذي خلقه الله، وأظن أن سلم الحضارة وصل إلى منتهاه، بعد أن عرف إخناتون التوحيد في عبادة قرص الشمس، و لم يعد الإنسان بحاجة إلى معرفة المزيد عن هذا الكون، فكل ما ابتكره لاحقًا ليس إلا أشياء زادت حياته تعقيدًا وحيرةً وألمًا!.

جزء من جسد مصر يختال أمامي بفتنته وسحره، فالمدينة العظيمة، بعراقتها وقدمها وما تبقي من كزموبوليتاينتها، وبتعددها الثقافي والحضاري، خليط البشر الذين يسكنونها أو يمرون عليها من أقصى صعيد مصر إلى شمالها، بقايا الأجناس التي استوطنتها، البحر الهادر والسماء الربيعية البديعة والأرصفة النظيفة والجو الرائق ذو النسمة المنعشة، والحياة النابضة في كل زوايا المدينة، صباح يوم جديد ينشر بهجة ولكن ليس للجميع بشكل مؤكد...

أكملت سيري على رصيف الشاطئ الذي تمر بجواره "الميكروباصات" التي تنقل الركاب من أقصى الشرق في منطقة أبي قير آخر الكورنيش شرقًا، إلى أقصاه غربًا حيث منطقتي بحري والمنشية.

على امتداد طول ذلك الشاطىء تراص الفقراء مُبعثرين ينتظرون بضع سمكات لتستقر في شباكهم حتى يوفروا ثمن الوجبة التالية؛ فتكون بالإضافة لكونها هواية، نزهة مجانية، ووسيلة لجلب الرزق. ويتناثر أيضًا عشاق اختبئوا وسط الصخور التي وضعت لصد الأمواج وحماية الشاطئ من النحر، فاختلسوا قبلة في غفلة من المارة، لما عجزوا عن توفير تكاليف شقة للزواج، أو تدبير ثمن الجلوس في مقهي فاخر، شبان هزيلو البنية في ملابس رخيصة، وفتيات ملونات بالحزن والدموع، تدور بينهم أحاديث عاتبة، ويتبادلون كلمات ملتاعة استعدادًا لفراق مقدر ومحتوم على عادة تلك القصص التي تشغل تلك المساحة المرتبكة من حياة البشر وتترك ندوبها على

أرواحهم مخلّفة ذكرياتها الأليمة، وربما تخلّف مجرد ابتسامة ساخرة على سذاجة تلك القصة. وقد يتحول العشاق في همسهم ونجواهم إلى تبادل حادٍ للاتهام بالخيانة ونقض العهود! قبل فاصل من النشيج المتقطع من فتاة الصخور كأنها جنية بحر أو سيجارة مرتعشة في يد الفتى إيذانا بالرحيل.

وعلى الرصيف الآخر الكافيتريات الأنيقة المواجهة للبحر ذات الـ"منيمام تشارج" التي لا يقدر عليها الفقراء. أو واحدة من سلاسل المقاهي العالمية أو الفنادق القديمة بأناقتها المفرطة وعمارتها المبهرة أو فنادق حديثة فاخرة بواجهاتها الزجاجية الداكنة وارتفاعاتها الشاهقة، والـ "بودي جارد" المزروعون بنظاراتهم الداكنة، والسماعات خلف آذانهم على أبوابها يلقون بالتحية على الرواد ذوي السيارات الضخمة التي تشبه دبابات صغيرة تندس في مداخل الجراجات حتى تختفي تمامًا كأنما انشقت الأرض وابتلعتها!

الرصيفان هما تناقضا المدينة بين الحرية والتكلف، الفقر والثراء، الحضارة بكل زخمها وإزعاجها والطبيعة بكل عفويتها وانطلاقها، التناقض هو سمتها، كمان كان التعصب طابعها منذ سنوات.

صوت فرملة سيارة عابرة كان كافٍ لإفاقتي من شرودي، وها قد وصلت أخيرًا إلى مقر عمل هالة في شركتها السياحية، لابد أنها ستسعد حقًا بزيارتي المفاجئة، وفي نفس الوقت ربما كانت تتوقعها. أعرف جيدًا مقدار سعادتها الجنونية الآن بتلك النقلة في حياتها، ولكنها تكبحها بقوة داخل ملامح وجهها الحادة المترفعة التي تناسب وضعها الجديد كسيدة أعمال قوية!

متأكدة أيضًا أن أعمال الديكور في حقيقتها هي الإعلان النهائي عن تغيير الفئة الوظيفية لهالة. هي ثوب جديد لبداية مرحلة جديدة للشركة، وأيضًا يمنحها ذلك مسوغًا أدبيًا لبقًا لإزاله صور "السيد فريد" -المالك السابق للشركة- من على الجدران ولتغيير مكتبه الذي كانت تتمترس بجواره، كمجرد موظفة منذ سنوات..

ولإعطاء إجازة غير مدفوعة الأجر لباقي الموظفين لحين انتـــهاء أعمـــال الديكور. وطريقة مهذبة ومفهومة للتخلص من بعض طاقم العمل القديم مـــع وعد غير صادق باستدعائهم عند الحاجة.

****

صاحبت هالة منذ خمسة عشر عامًا، في المرحلة الابتدائية ثم الإعدادية ثم الثانوية.

الجميع عرف ريم وهالة معًا وأطلقوا علينا "التوءم". لعبنا تحت شجرة التوت العجوزة بجوار فيلتها، المجاورة لنا في منطقة لوران، "الاستغماية" وجمعنا التوت المختلط بالتراب وأكلناه سويًا، كان أشهى من العسل. قطنت هالة في فيلا والدها بينما كان بيت أبي مترلاً صغيرًا من شقة واحدة لكل دور، كانت المنطقة في الستينات، الأرض تطل من شارع أبي قير إلى البحر مباشرة دون فاصل، أما ما بعد منطقة ترام الرمل فلم يكن له أثر، كانت نافذتي يمكنها رؤية البحر. بينما فيلا هالة المحاطة بالأشجار أشبه ما تكون بالقلعة الحصينة! تقاسمنا معًا أسرار المراهقة. قاسمتني متاعب اكتمال الجسد، وشاركتها لوعة فشل قصص الحب المراهقة وتكسر أحلام المراهقة، اشترينا سويًا أول مُلمع شفاه، وسويًا ذهبنا للمرة الأولى لتهذيب حواجبنا، قررنا معًا ممارسة فاحشة "التزويغ" في المرحلة الثانوية، بدأنا في تدخين السيجارة الأولى، أتذكر أن الفكرة كانت فكرة هالة ولكني كنت الأكثر انبهارًا وانصياعًا لتنفيذها، فذهبت لشراء العلبة الذهبية من بقال بعيد بمسافة كبيرة من البيت حتى لا يشي أحد بنا إلى أمي، اشترينا سجائر الكليوباترا ذات العلبة الذهبية المرسوم عليها رأس كليوباترا الخالدة التي تتوسط العلبة بشموخ ورفعة وعلى رأسها التاج الملكي، كانت الرأس السوداء التي لا تشي بملامح صاحبتها تشعرنا أننا الملكة الغامضة التي تدخن السجائر في نافذة قصرها. كان مكتوبًا عليها "سجائر كليوباترا السوبر ١٠٠ بفم فيلتر".. مدونًا أسفلها في مستطيل صغير "التدخين ضار جدًا بالصحة". كانت

العبارة الصغيرة غير مقلقة مع عبارة "بفم فيلتر" التي تعلوها. إن السجائر مفلترة ويمكننا رؤية النيكوتين محبوسًا في الفيلتر، النسيج القطني في عقب السيجارة، إذن لا ضرر. السيجارة الأولي كانت كريهة بالنسبة لي، تركت جفافًا على لساني وحلقي وسعلت بعد أول نفس مرات عديدة، بالنسبة لهالة فقد كانت أكثر احترافية واستطاعت مع "النَفَس" الثاني إخراج الدخان من أنفها كما استمتعت بالتدخين و لم تفارق العلبة حقيبتها من ذلك الحين! انتهى موضوع التدخين بالنسبة لي بعدها بعامين، حين لاحظت أمي رائحة الغرفة عقب إحدى زيارات هالة.

التدخين متعة كبيرة، كيف أمسك ذلك الكائن الصغير بين إصبعين أحرقه وأتلذذ بعذابه حتى يفنى من الألم تحت ضربات شفتي المتتالية –مع ذلك الارتباك الطفولي بين آلية الارتشاف ونفث الدخان– ويسقط صريعًا في النهاية كومة من الرماد دون عقاب أو لوم ودون إحساس بالذنب. ليت ذلك متاح بشكل كبير في الحقيقة!. ليت هناك كائنات تفني نفسها تنفيسًا عن غضب الآخرين أو تكرِّس حياتها لذات الغرض!.

بعد نوبة من العويل والنواح من أمي، حين شكّت في رائحة غرفتي وأقسمت أن تترك لي البيت لتعيش في دار مسنين وتتركني للضياع _ حسب قولها_ كما ضاع أبي قبلي!!.

تطورت السجائر التي بقيت في حقيبة يد هالة من الذهبي السادة إلى الذهبي المخطط، ثم تغيرت رأس كليوباترا السوداء إلى اللون الأحمر..

ثم تنقّلت هالة إلى ماركات أخرى "الروثمان والمارلبورو" حتى استقرت على نوع آخر من السجائر فرنسية الصنع، دقيقة جدًا، في علبة من اللون الفضي الغامق، تبدو أكثر أناقة.. تضحك هالة الآن حين تراها قائلة: "فاكرة ساندوتشات السجائر القديمة اللي كنت بادخنها؟"..

كانت نوبات الجنون التي تنتاب أمي، بسبب موضوع السجائر أو لأسباب

أخرى، مفاجئة وغير مبررة لي أحيانا؛ فعقب تلسين إحدى زميلاتها في العمل أو مكالمة من أعمامها في البلد، أو زوجة أخيها الحيزبون -هكذا كانت تسميها وأنا أيضًا- يجب أن نشهد انفجارًا عنيفًا في البيت، ولم أعرف معنى الحيزبون إلى الآن. ولا حتى اشتقاقها اللغوي، وما إذا كانت ترجع لأصل عربي أم تبدو تركية في أغلب الظن. لم أكن أعرف معنى "التلسين" وقتها. لكن كنت أعرف انفجاراتها في البكاء ودعاءها على أبي بقلة الراحة، وكشف الستر، وشماتة العِدا.

أذكر من أبي وجهه الضخم المشرَّب بحمرة وعينيه العسليتين وجسده القوي، وكفيه الكبيرتين، كما أذكر بدلته الصيفية ذات النصف كم، كان دائمًا ما يرتديها، وجلوسه على كنبتنا القديمة، قبل أن نستبدلها بأنتريه حديث، يستمع إلى أغاني أم كلثوم. وإذاعة صوت العرب من القاهرة أو على ترابيزة الأكل منكبًا على أوراقه يعمل. يسقي أبي زرع النافذة. يداويه بالسماد الذي يجلبه من وزارة الزراعة في المنشية، أو يقلمه بمقص كبير. يروي أبي أحيانًا، ساعة الغروب، شجرات شارعنا بصبر واهتمام، وينقي أحواضها من الحشائش، ويجلب أمتار السلك، التي يقوم على ثني حوافها بكماشات وشواكيش ثقيلة، صانعًا سياجًا قويًا للنباتات الصغيرةحتى يحميها من أن تكون مرمى للكرات التي يلعب بها صبية الحي. أو يستقبل زيارات أولاد عمه الآتين من قريته البعيدة التي لم نعرفها ليسلمونه ميراثه من بيوت الإيجار التي يشارك فيها آخرين ورثًا من جدي الراحل. يسلمونه جنيهات قليلة لا تكفي لصنع وجبة طيبة للترحيب بالآتين من سفر. مرت أيامنا هادئة وادعة حتى ظهر اسم لسيدة أجنبية كانت ترسل له بطاقات بريدية بحروف لاتينية، ثم نشبت المعارك التي كانت تشهد دموعًا حارة تسكبها أمي ثم تنتهي المعركة بحضور أخويها للبيت لعمل قعدات الصلح التي تنتهي بالفشل الذريع ثم تعود مرة أخرى المعارك الحامية، إحدى تلك المعارك انتهت بتكسير طقم الصيني "الروميو وجولييت" الذي تحتفظ به

أمي في البوفيه الكبير وتحرص على وضع ورق الجرائد بين أطباقه حتى لا تنكسر بسبب الاحتكاك، ولامتصاص الثقل،ثم أخيرًا انكسر الطقم في المعركة وتفتَّت صورة روميو وجولييت للأبد، وكان انكسار الطاقم نذير شؤم!

ورحل أبي ليلتها إلى بلاد بعيدة حيث تقيم تلك السيدة على الشاطئ المقابل لمدينتنا، ويا للعجب، و لم نرَه من يومها!.

كانت أمي، في صفوها، تنعتني كثيرًا بالسهتانة فتقول "زي أبوكي ساهي وهو داهي" الحقيقة إن (السَهَتان) هو قدر هائل من اللامبالاة أو اللؤم أو كلاهما معًا، وهذا ما لم أكُنه في الحقيقة.

لكن لم أكن أشبهها، أحمل ذاك القدر من الشحن والغضب الذي تحمله، لكن كان يرقد بعيدًا في العمق؛ بحيث لا يكون متاحاً لهؤلاء العابرين على قشرة الروح، أو يكون مطروحاً كقماش رخيص يقلب فيه القاصي والداني، أو جرح مكشوف يزيد انكشافه للهواء من تقيحه، ودواؤه أن يحفظ حيًا تحت طبقات من الضماد، رغم ذلك لا يشفي أبدا، بينما انسحبت تكشيرة كبيرة على جبينها حتى رحلت، في حين تمددت ابتسامة ساخرة على فمي كانت تعني، كل شيء غير مفهوم ولا منطقي، كل شيء غير قابل للجدال، ابتسامة منهزمة وسعيدة للاستسلام لمقادير هذا الكون الظالمة.

سأكتب يومًا رواية عنها ستكون بطلتها الرئيسة. الغريب أني حين أشرع في الإمساك بالقلم لا أتخيلها هي، لكن امرأة أخري عبرت أحد الأفلام الأبيض والأسود ثم اختفت. تحول جسدها إلى أيونات كهربائية وتفتت وتلاشت في أنحاء الكون السحيق أو ستتواري في التراب، ربما أزرع بعض الصبار الملون على قبرها وأذرف كثيرًا من الدموع بما يليق بابنة بارة وتنتهي الرواية بأن العالم الوقح سيربت طويلاً على كتفي باعتباري إحدى ضحايا تلك المرأة !!

****

بعد سنوات من رحيل أبي. بقينا وحدنا أنا وأمي في البيت كضلفتي نافذة عتيقة، لا تفترقان ولا تلتقيان الا باصطدام مزعج، وحيدتان مذئوبتان..

عرفت أنه في المعركة الأخيرة بينهما دفعها إلى الجدار أثناء رحيله لتفقد طفلها. لم أكن أعرف بالطبع أن أمي حاملاً. و لم تكن بطنها ارتفعت حتى.. لكني عرفت أنها مرضت، أنها تواظب على دخول الحمام حيث تترك آثارًا لدماء خلفها لأسابيع. عرفت أيضًا، لاحقًا، أن تلك الدماء كان وليدها الذي لم يقدَّر له أن يري النور. وأنها "سقطت". سر هذا الحمل الخفي لا يعرفه أحد إلا الله وأمي وطنط إحسان.. هل دفعة يد أبي قتلت الطفل في بطن أمي؟، هل كان يعلم أنها حاملاً بالأصل؟. أم أنها أسقطت هذا الحمل عمدًا حين قرر أبي ترك البيت؟ إذن لماذا تصر على اتهامه بأنه قتلها مرتين؟! وأنه قتل ضناه! . تحكي لي الحكاية ألف مرة لتضمن أن هناك مستمعًا دومًا لمأساة حياتها التي تخاف إن توقفت عن ترديدها أن تنساها!

وبينما فتحت هالة نافذة كبيرة في جدران أيامي الصامتة بقيت أيام أمي كلها موصدة يأكلها الوقت والحسرة والغضب!!. ثم انقطعت زيارات أخوالي أيضًا عن بيتنا، أحدهما أثقله المرض وبقي طريح الفراش، أما الآخر فقد قرر تلك القطيعة بنفسه بعد سنوات من الوصال. في تلك السنوات الأولى تمضي النهارات المتتالية في النحيب عليه. وتدعي على "اللي خدوه" لم أكن أعي وقتها ما هو الاعتقال؟ لكن عرفت في إحدى الزيارات أنه الانتقال إلى السجن الحربي تحت التحفظ أو التحقيقات أو تنفيذ حكم متعلق بقضية لها علاقة بالسياسة وهو مكان بعيد تذهب إليه سيارات الأجرة "البيجو" الفرنسية التي تعتبر وسيلة

أساسية للمواصلات بين قرى ومدن مصر المحروسة، سُميَّت في الثمانينات بالنعوش الطائرة لكثرة حوادثها إما بسبب سرعة السائقين الذين يتناولون المخدرات بكثافة أو الحشيش والأفيون لمنعهم من النوم ساعات طويلة. أو بسبب رداءة وضيق الطرق التي تشرف غالبًا على ترع ومصارف مائية..غير محمية الجوانب. لكننا كنا نستقلها ونكتفي بدعاء السفر الذي لم أفهم وقتها كيف تحمينا "وما كنا له مقرنين" من سائق يترنح رأسه كثمرة ناضجة على غصن فوق "الدركسيون" مسافات طويلة في طريق مُغبَّر.

نجلس أنا وهي في كنبة السيارة "البيجو" الخلفية..نقلب الكنبة الوسطى إلى الخلف لنعبر من ضيق إلى الكنبة الأخيرة حيث لا يزاحمنا أحد. ننفضها جيدًا كي نطمئن أن إحدى العقارب لم تندس في قش التنجيد الجلدي الممزق أو تحت الدواسات الجلدية، داخل المعتقل، ندخل عبر بوابة كبيرة من الحديد ثم نسير أمتارًا طويلة في شدة الحر تحت وهج الشمس الذي يصبغ بشرة أمي ويجعلها تتورد كأنها تختنق. ثم إلى فناء كبير تغطيه شمس حارقة ومباني على طراز المدارس الحكومية ثلاثية الأضلاع، رمادية قريبة للسواد كأن حريقًا شب فيها. غرف تلو غرف، ومكاتب خلف مكاتب، وسيارات عسكرية مرتفعة، وعساكر يسحبون رجالاً بأصفاد.

أذكر هؤلاء الجنود بملابسهم العسكرية وبشرتهم السمراء وشواربهم الثقيلة الكثة وبياداتهم الثقيلة يروحون ويجيئون في حركة محمومة، يقبضون في أيديهم على سلاسل لكلاب ضخمة، تجعل قلبي مقبوضاً، ثم نرى خالي ناصر الذي يظهر وقد زاد نحولاً وكآبة، خارجًا من أحد العنابر، لوقت قصير جدًا، من خلف القضبان، يهمس لأمي بصوت غير مسموع، كأنه أبكم، شفتاه فقط هما اللتان تنفرجان، ثم يعود إلى زَمَهُما مرة أخرى، بالكثير من الطلبات، يطلب منها تسديد ديون أو إرسال رسائل لأهالي أصدقائه المعتقلين، أو طعام قبل أن

ينتهي حبسه الاحتياطي، أو إخفاء أشياء وكتب من بيته، أو ملابس داخلية جديدة، ونبدأ رحلة العودة الكئيبة إلى البيت بنحيبها الذي لا ينقطع طول الطريق مرة أخري.

لم أعرف شيئًا عن أحوال السياسة وقتها، أنها فقط الثمانينات، غير أن هناك شيوعيين يجب أن يزّجوا في المعتقل لأنهم يكتبون أشياء في مجلات ضد الحكومة، يتحدثون عن الأسعار وكفاح العمال أو تشريدهم، ومراكز القوى والقطط السمان، ومقاومة إسرائيل والخطط الإمبريالية التوسعية ومعاهدة كامب ديفيد.. والإسلام السياسي والفاشية والرجعية والإمبريالية والخضوع والسيطرة والهيمنة والقطبين والحرب الباردة. وأشياء أخرى لا حصر لها.

أخفت أمي كتباً كثيرة من بيت خالي عن الماركسية ولينين وأنجلز وماوتسي تونغ، ورأس المال، والطبقة الكادحة، النظرية الداروينية، وصناديق من المنشورات بداخلها منشورات مزينة بصورة المطرقة والمنجل ذات اللون الأحمر، ورسائل وكتابات ومراسلات مع أصدقائه، وأجهزة صغيرة للراديو تستقبل شفرات اللاسكي برموز غير مفهومة.

جمعت كل شيء وأعطته لأخيها الآخر "راتب"، والذي تولى التخلص منه للأبد، خرج خالي ناصر (الشيوعي) إحدى المرات ولم يعد للسجن أبدًا لقد انتهي عهد النضال!.. لم تكن حياته في مصر تطاق؛ فقدت تفاصيل كثيرة بعدها، لكن أذكر زواجه من إحسان مدرسة اللغة العربية التي تعمل في السعودية، كتب خالي ناصر كتابه عليها ولحقها إلى هناك واختفوا لسنوات هناك، بَنَت خلالها إحسان شقة في بيت أهلها وصبت سقفها بالمسلح في إحدى قرى كفر الشيخ وعادوا بعد سنوات لينعموا بما جنوه من أموال.

تحول خالي (الشيوعي) بعد تلك السنوات إلى شيخ وأطلق لحيته وارتدت زوجته خمارًا كبيرًا ينسدل بشكل دائري فوق صدرها تحته منديل مثلث تجمع

رأسها تحته حتي ما فوق جاجبيها. عملت احسان عملاً اجتماعيًا، ظاهره تحفيظ القرآن في مسجد مجاور، وباطنه خاطبة شرعية لبنات السيدات اللاتي يرتدن المسجد.

لم تتقاضَ إحسان أموالاً عن هذا العمل لكنها قبلت الهدايا بتوسع! قطعة قماش من القطيفة الزبْدة وارد أرض بيت الرسول أو كيس بخور ومستكة وبهارات سعودي، غالية الثمن، يحضرها العائدون من بلاد البترول لزوم صنع الكبسة والثريد وبقية الأكلات التي صبغت ثقافة العائدين من تلك البلاد. وأحيانا تطلب وساطة لنقل أبناء أخيها من كليات بعيدة إلى أخرى أقرب أو وساطة لإعفاء أبنائها من الخدمة العسكرية أو ربما لو نجحت في عقد زواج إحدى الفتيات المحافظات إلى عريس ثري تكون المكافئة أكبر، عقد عمل لزوج ابنة خالي في الكويت، ومرة أخرى أسورة مُحلاة بالجنيهات الذهبية تستقر في معصم إحسان. كان بيت خالي لا يخلو من هؤلاء النسوة ذوات اللكنة والطابع والزي الخليجي، إنه الطوفان الذي لم ينجُ منه بيت في مصر في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي.

تجلس إحسان على ماكينة الخياطة تصنع القفاطين القطيفة للخروج حيث الافراح والمعازي وجلاليب البيت "البيكاه والللينوه" بنفسها وتتباهى أنها ست كاملة "ما تلبسش من تحت مقص غيرها أبدًا"!، أمامها كوب الشاي الذي يزينه عود النعناع وبجوارها القلل وصواني الترمس المنقوع، والحلبة المزروعة فوق القطن المبلول، وأصص الريحان المتحاورة. تجلس أمام "الفراندة"، حيث لا تطول شمس المغربية ذراعيها الأبيضين كأنهما أرنبان مشنوقان بالأساور، تركن ساعديها الأبيضين على ماكينة الخياطة حيث يرقد في نهايتهما، قرب الكفوف، "جوز الأساور التعابين عيار اتنين وعشرين"، تتباهي إحسان دومًا بأنهما بندقي أصلي! الأساور مخيفة فعلاً فهي لينة لأن عيار الذهب غالي مما يجعلها لينة،

تفتحهما إحسان وتعيد اغلاقهما على معصمها حين تجفف من خلفهما المياه من أثر الوضوء أو حين تدهن يديها البيضاوتين بالفازلين أو قشر البرتقال والسفندي لزوم النعومة والطراوة، في حين تنكمش أمي الكئيبة أمام سطوة إحسان المهيبة، كما ينكمش الأرنب الذليل أمام كلب شرس! لم يُعد خالي ما أنفقته أمي عليه أيام المعتقل، و لم يساعدها بأي شيء لاحقًا و لم تعترف إحسان بفضل أمي عليه بل تنصلت وحاولت متابعة استغلالنا بدورها... قبل أن ينتهي كل شيء فلا مكان في بيتها لمن ليس لهم فائدة!

أمي ارتدت الحجاب وتركت حاجبيها بدون تهذيب توقفت عن مشاهدة التلفزيون إلا من أحاديث الشيخ الشعراوي بعد صلاة الجمعة.. أحيانًا نشرات الأخبار متمتمة بسخط "دنيا خربانه حالها مش باين له ها ينعدل أبداً"...

أو قائلة: ربنا يخرجنا منها على خير بقي! ثم تشد قابس الكهرباء، سنوات طويلة لم تتعامل أمي مع مفتاح التشغيل لكن مع القابس مباشرة، لم أعرف السبب و لم أسالها و لم أتوقف عن الملاحظة والتساؤل الصامت أبدًا.

أما عن التدخين فمتعة الأمر لم تكن تستحق بالنسبة لي الاستمرار بينما استمرت هالة كمدخنة شرهة، في الخامسة والعشرين كانت أسنانها مصبوغة تمامًا بسبب التبغ، أذكر أن أمي أجبرتني في إحدى انفجاراتها العاصفة أن أقسم على المصحف أنه لا علاقة لهالة بموضوع التدخين؛ فلم يكن أمامي إلا أن أقسم كاذبة، وأذكر جيدًا أني شعرت بوخز شديد في ذراعي بعدها لأيام كثيرة، وثقل شديد أرجعته أيامها بلعنة حاقت بي وغضب رباني لجرأتي على الحلف كذباً على القرآن!!

كانت هالة إلهة المرحلة، لم تكن العلاقة بيننا بصورة التابع والمتبوع القائد والجندي، المفكر والمريد. لم تزعجني أبدًا، لكنها كانت ترضي روحي القلقة

وتشعرني بالأمان والثقة، كانت هالة أكثر جسارة على تلك الموبقات التي كنت أكثر شغفًا بها في مرحلة لاحقة، كانت أكثر شغفًا بالفضائح الصغيرة، بينما كنت أكثر تورطًا.

الفارق أنني زهوت أكثر بأنوثتي، سعدت كثيراً بكلمات الغزل وتحرشات الصبية، أطلقت خيالي في نسج قصص الحب الوهمية، بينما كانت هالة أكثر هوسًا بأن تكون قائدة قطيع المراهقات تترأس الشلل وتشن الحرب على أي فتاة تضايقها لأي سبب وتقوم بتلفيق التهم لها واستبعادها تماماً، ربما تنتهي مؤامراتها الصغيرة بوشاية زميلة عند أهلها بأنها تخرج بصحبة أحدهم، أو عبر مكالمة من مجهول تجبرني على القيام بها، أو قد تنتهي بدسيسة ضدها تتسبب لها في جواب تهديد بالفصل واستدعاء لولي أمر. ومن الناحية الأخرى كانت تشرف على لجان الرحلات والكشافة التي تتيح لها الفرصة كاملة لممارسة السيطرة على الأخريات، لم يكن هناك من يقدر على إغضابها، لم تكن محبوبة لكنها كانت مرهوبة وكان ذلك يجعلها منتشية وفي قمة سعادتها. كما كان ذلك يغيظني أحيانًا..

التحقنا بالجامعة في النهاية وفي نفس الكلية استمر عهدنا كالسابق، شاركنا في معظم المظاهرات، كانت هالة تعشق أن تهتف وخلفها الآخرون! أن تتألق ويكون لها تابعون ومريدون. لم أكن أهتم بذلك ولكن كنت أحب أن أشاركها. لم يكن مقبولاً أن تبقى هالة بدوني أبدًا، ولم أكن أجرؤ على خذلانها، وفي المرات القليلة التي فكرت في التمرد على جموحها كانت شديدة الضغط لإقناعي وفي النهاية كانت اختلافاتنا تنتهي في صالحها، والحقيقة أن ذلك كان يروق لي. في حقيقة الأمر كنت في حاجة دومًا إلى ذلك الحماس الجنوني!

شاركنا في مظاهرات ضد الحرب على العراق وإن كنت أضحك في أعماقي لأن هالة لم تكن تستطيع عد أسماء ثلاث محافظات عراقية مجتمعة، وربما

تعتقد أن إسرائيل تجاور العراق على الخريطة، لكنها هتفت لصدَّام الـ"مجيد"!!
وضد المؤامرة الإمبريالية العالمية التي صنعتها أمريكا عن طريق السفيرة "إبريل جلاسبي" التي لم تردع صدَّام عن غزو الكويت، وكانت العراق وقتها قد انتصرت في حرب الخليج الأولي على إيران عدوها وجارها اللدود. وكان صدَّام يعتقد أنه الأخ الكبير الذي يحمي الدول الخليجية الصغيرة من الجارة الإيرانية الشيعية الطامعة. التي تريد أن تبتلعهم ولم يكن خافيا مساعدة الخليج للعراق في حربها، ولكنه لم يجد في النهاية غضاضة أن يلتهم إحدى تلك الدول ويعتبرها المحافظة التاسعة عشرة للعراق. لكن الأمور لم تسِر على هواه لاحقًا وتغيرت خريطة المنطقة للأبد.

شاركنا ضد منع الحجاب في فرنسا، كانت مظاهرة نظمها الإخوان المسلمون وكنا الفتاتين الوحيدتين السافرتين في المظاهرة. كان لهالة جرأة لا تحسد عليها قالت لي: لو حد سألك :نازلين ليه معانا؟قولي حرية الملبس حق إنساني تكفله الأمم المتحدة والمواثيق الدولية!!

لم أكن أعرف من أين اقتبست العبارة؟ غالبًا من إحدى المنشورات التي وزعها المتظاهرون عليّ من طلاب التيارات الدينية.

خارج كليتنا في عامنا الثالث شاركنا في الاحتجاج ضد رفع أسعارالإقامة في المدينة الجامعية رغم كوننا لسنا من المتضررين لأننا أبناء نفس المدينة، كانت هالة بعد فاصل من الهتاف ووسط زخم المظاهرة تميل عليّ هامسة حين يحيط بنا ضباط الأمن: شايفة الضابط الأمور ده... شكله معجب بيّا!

كانت لا تكف عن إدهاشي، ولم أكن أستطيع التخمين كيف تفكر!!
ولا كيف باستطاعة عقلها أن يستوعب العديد من الأشياء في وقت واحد؟
كيف تذاكر وتعي قصة حب على الهاتف. كان الهاتف في بداية التسعينات قد دخل معظم البيوت المصرية ولم يعد حكرًا على علية القوم. بعد أن انتظرته

أجيال سابقة لمــدة عقــود. كيــف تســمع الموســيقى بينمــا تتغــوط!
وكيف تهتف في مظاهرة بينما تراقب" الضباط الأمامير" إذ ربما يمكن لعينــها
الصيادة اقتناص نظرة من أحدهم تمهد لابتسامة فلقاء!.

****

كان اليتم مبكرًا قدري، ذهب أبي، الذي كان موظفًا في وزارة الصحة نعيش معه حياة صامتة، يغلفها البرود لكنها كانت بحبوحة من العيش، نأكل طعامًا جيدًا، ونذهب للمعمورة أو لمنطقةبحري في المناسبات وإجازات المدارس. تخدمنا سيدة قوية تأتي لغسيل الثياب كل أسبوع.

كانت الخادمات في تلك الفترة شيئًا معتادًا لدى أسر الطبقة الوسطي المصرية. قبل أن يذهب الجميع رجالا ونساء للخليج، سواء كانت عمالة مدربة ومهنية أو نصف ماهرة. كانت أم عبير إحدى تلك السيدات الريفيات قويات البنية التي تبدأ كل جمعة طقوس الغسيل بغلي الماء وفرد "الطشوت الألومونيا" وإيقاد "البابور النحاسي" بالرغم من وجود أنابيب البوتوجاز. وتبدأ في النقع ثم الغسيل بالماء الساخن والمسحوق و"المَرش" أي الدعك بالكفوف لإزالة البقع، ثم الشطف والتزهير لتكتسب الملابس البيضاء بياضًا ناصعًا أقرب إلى الزرقة، وأخيرا النشر في صفوف أنيقة على الحبال،في نظام صارم تعارفت عليه البيوت المصرية في صمت،الغيارات الداخلية الرجالية اولاً. ثم الفانلات البيضاء من ماركة الجيل من القطن المصري الشهير وخلفهما الفوط والبيجامات، ثم ملابس النساء بعدها الملاءات الاكثر طولاً. تتراص القطع البيضاء الهفهافة على الحبال لتتباهي أمي أمام الجارات بنظافة ملابس رجلها.

بينما أمي في المطبخ تمضي الساعات في خرط الملوخية أو لف ورق العنب،او صنع الحلبة المعقودة. وأبي صامت على سريره يستمع إلى أم كلثوم في أغنية "فات المعاد"، "سيرة الحب" أو "الأطلال" أو عبد الوهاب في الجندول. عبر راديو صغير.. أو يتابع النافذه شاردًا كأن ما يحدث في البيت لا يخصه من

قريب أو بعيد، أو كأنه ممثل بلا دور في مشهد يرغم على الوجود فيه أصلاً! أو يحدِّق بالساعات في صورة عبد الناصر ذات اللونين الأبيض والأسود لساعات وساعات، ويترحم على الأيام السوداء التي حلّت علينا بعد وفاته وعلى "الغلا والكوى". وكيف أن الخونة دسُّوا له السم في الطعام. كأن عبد الناصر هو شبح رابع يعيش معنا في البيت، كأنه مبعوث من العالم الآخر يراقب تحركاتنا وهفواتنا، يراقبنا ونحن نأكل الطعام. ونحن نقابل أخوالي وأقارب أبي. يستمع اللي حواراتنا ويعرف اسرارنا.يحرسنا كبواب مخلص أو ككلب صيد. وفي حين نغلق الأنوار لننام فلا تغلق عيناه المحبوستان في إطار اللوحة.

فجأة حزم حقائبه ونزل من البيت، مسافرًا إلى امرأة أخري في بلاد بعيدة تفصلنا عنها أمواج وبحور. عقب فترة غامضة ضبابية لم أذكر تفاصيلها كثيرًا. ما علق بالذاكرة، جلسة عاصفة بها الكثير من همهمات لأمي، ونشيج طويل، وغضب مترنح. غضبة ثور جريح يستسلم لقدره، ويزفر زفرته الأخيرة عقب طعنة قاتلة.

نزلت من البيت خلف أبي لألعب مع هالة "استغماية" كالعادة تختبيء هالة خلف إحدى الأشجار، أو وراء سيارة رابضة لا تتحرك منذ مدة، وعليها أغطية ثقيلة. ربما خلف سلالم العمارة الأسمنتية أو تحت دكة عوض البواب المريض بالبلهارسيا الذي تنفق عليه وترعاه زوجته القصيرة البضة سعيدة. فتغسل سيارت الشارع وتجلب الخضار لربات البيوت أو تغسل سلالم عمارات أخرى، تقف في الفرن لتحضر الخبز وأكياس الفول وتذهب "للأجزاخانة" لتجلب "الروشتات" وربما امتدت خدماتها لصنع "الحلاوة" للسيدات وغيرها من الأعمال.

تختفي هالة خلف دكة عوض، ودائمًا ما كنت أنهرها لذلك. أمي تقول إنه لا ينبغي الاقتراب من عوض لأنه مريض بمرض وحش، ولكن هالة تفعلها

مرارًا، لا أذكر السبب الذي يجعل هالة دائما ما تختفي، وأنا غالبًا ما ألهث خلفها، أجري إلى مالا نهاية، أركض وألهث ويتصبب عرقي حتى يبلل منابت ضفيرتي، غالبًا لا أجد شيئًا، لا أجد ما أبحث عنه. ركضي ينتهي إلى فراغ هائل وإرهاق مضنٍ، قوة غير مفهومة تجعلني لا أرغب في الاختفاء ولا أمارس ألاعيب وحيّل المداراة، أنا دائمًا موجودة للآخرين. أبحث، أركض، ألاحق شيئًا ما، قضيت سنوات طفولتي أبحث عن هالة، ثم أبحث عن أبي، ثم عن حسام وباهر وسناء وآخرين مرُّوا لا أذكرهم الآن، بعد البحث الطويل لا أعرف حصيلة البحث. اختفى الجميع أو سجلوا حضورًا شرفيًامرة او مؤلما مرات!!

قامت أمي المكلومة، والمنتحبة أبدًا، على تربيتي وحدها، عمي المهاجر لبلد آخر، ساهم بمبالغ زهيدة يرسلها لنا كتعويض عن غياب أخيه الذي رحل مع صاحبة البطاقات البريدية، ليعمل بإحدى دول جنوب أوروبا، وظل يراسل أمي سنوات قليلة ثم تباعدت أخباره ودفعات النقود التي يرسلها لنا حتى انقطعت نهائيًا، كانت هناك أخبار متقطعة أنه تزوج بسيدة البطاقات البريدية، التي "خطفته" من بيته في ثراء شديد، وأخبار أخرى أنه محكوم عليه بالسجن لاتهامه في قضية قتل مهاجر عربي آخر في إحدى الحانات!

لم يكن أحد يعرف الحقيقة ولم أكن أناقش الأمر مع أحد، ولم أبحث عنه. كان اختفاء "منصور" جرحًا أكثر عمقًا وألمًا من أن أتحمل أن ينكأه أحد، كان الأمر أشبه ما يكون ببئر عميق مغطى بأغصان جافة أعبر عليه يوميًا بحرص بالغ أمد ساقي كي لا أسقط داخله...

قليلا ما سمحت لأحزاني أن تنكشف حتى أمام هالة لم أعرف السبب جيدًا ولكن الأكيد أنها لم تكن تهتم بذلك، لم تكن تملك تلك اليد الحانية وذلك القلب المواسي، أو تلك العين التي تستطيع أن تسبر أغوار الآخرين، وتمسح أحزانهم، لكن كانت تسيطر عليّ مشاعر اللاجدوي، وكان الأمر عبثيًا مؤلمًا!!

أعتقد فعلا أنه بالرغم من قربنا الشديد وحبي لها إلا أنها لم تكن تحفل بالأمر، أو ربما لم تشعر بوطأته على نفسي، بل شعرت كثيراً أن مباهاتها بأبيها وأسرته أحيانا دليل

على قسوة قلبها وهي تطأ جرحي بقدميها، وكرهت كثيرًا ذلك الزهو البغيض، لكن قليلا ما أتذكر أني سمحت لغضبي أن ينفلت من عقاله.

حلمت كثيرًا أني سألتقي أبي حينما سأذهب لإيطاليا يومًا ما مع حسام، وسأجده مالكًا لأحد الفنادق. أو صاحب مطعم. ربما حتى صاحب حانة، وسوف يقوم بدعوتي إلى بيته لأتناول معه المعجنات التي سيصنعها بيديه، رأيته في أحلامي كثيرًا يشرب الخمور بإسراف بعد الغذاء ثم يفرغ جوفه بعدها، أحياناً ينام مكانه على الأريكة أمام زوجي، لكني لم أشعر بالخجل من ذلك العجوز الفوضوي، لأنه كان قد غمرني في أحضانه واعتذر لي عن سنوات الغياب، وبرر لي جفوته وبعده بأنه كان غائبًا يجمع الكثير من المال ليبني لي بيتًا أكبر يليق بي!!

وفي غياهب الحلم أيضًا أحكي له عن شوقي وعن انكساري في البحث عنه في وجوه السائرين في الشوارع، في مدرسّي الكلية، في آباء صديقاتي، أحكي له عن غيرتي من هالة..

وسأقرأ عليه مما قرأت...

مستسلمًا لخطى أبيك ذهبت ابحث عنك يا أبتي هناك

عند احتراق أصابعي بشموع شوكك عندما

كان الغروب يقص خرّوب الغروب وعندما

كنا أنا وأبوك يا أبتي وراءك والديك

أنت المعلّق من يديك

وعليك صقر من مخاوفنا عليك

وعليك أن ترث السماء من السماء.

رأيتني أتكلم معه كيف هي الحياة غير عادلة في توزيع الحظوظ بين البشر. كيف قاسيت كثيرًا وسفكت دموعًا لم تبلل وجناتي، كيف صمدت لأكون فخرًا له وحتمًا لأنه عجوز مخادع حنّكته الغربة وخبرة السنين سيستغل حديثي ليسوق لنفسه

المبررات التي سأقبلها وأنا منهكة من جروحي الدامية ورحلتي الطويلة إليه.

سأقضي مع أبي سنواته الأخيرة قبل أن يموت، وربما أجد في خزانته رسائل وقصائد كتبها شوقًا لي قبل أن نلتقي أخيراً، فأستطيع أن أضمد بها جراحي وأتباهي بها أمام كريم وحسام وهالة، كم أتمنى أن يحين ذلك اليوم، وأن يظهر من غياهب الزمن المجهول. الغفران قيمة لا يعرفها المرفهون الذين لا تسحقهم انوفهم ضربات القدر! يخبُرها فقط من أنهكتهم الآلام وهدّهم الوجع. هؤلاء الذين يبحثون عن الأمان، حتى إذا شفيت جروحهم، لم يجدوا التشّفي والانتقام ذا جدوي؛ فقد تركت الندوب على أرواحهم آثارًا لا يمكن لأي انتقام أو حساب أن يمحوها أبدًا! لم أحصل على شيء في واقع الأمر، بضع رسائل متباعدة أرسلها أبي لأخيه. عليها طوابع بريد من بلاد بعيدة، الطوابع مرسوم عليها مبانٍ أثرية ومعابد وأشخاص بربطات عنق أنيقة ولحى، ونساء يلبسن التاجات، ربما أميرات أو ملكات ورجال بلحي وربطات عنق حيث أقام... جمعت تلك الأظرف بطوابعها. ثم بدأت اجمع الطوابع الأخري قبل أن ينقضي زمن الرسائل. طوابع حمراء وخضراء وزرقاء من العالم أجمع بعضها نادر وبعضها جميل الشكل صففتها في ألبومات. كان ألبوم الطوابع كنز صغير لا يعرف قيمته إلا من ينتظر رسالة. من ينتظر خلاصًا مرسلاً من وراء الأفق عابرًا للحلم، كاسرًا حواجز الجدران والمسافات والحدود. الطابع هو تأشيرة العبور، قبلة الحياة لمن ينتظر، وأصبحت الرسائل الورقية لا تحمل إلا المخاطبات الحكومية وإنذارات المحاكم والنيابات. لم تعد الرسالة الورقية تحوي بين جانبيها إكسير الحياة. ولّى هذا الزمان بلا رجعة.

****

تخرجنا من الجامعة بدأت ملامحنا في الاستقرار وصار للتوأم علامـــات لا يخطؤها الآخرون.

قال لي حسام يوماً ما: إذا كانت هالة الشمس كانت ريم القمر، هالة تحفر صـــخور الواقع الصلد بقسوته، وأنا كنت أمتطي حصان الخيال بجموحه ونَزقه!!

والد هالة كان ضابطًا متقاعدًا قوي الشكيمة، حازمًا؛ بســـبب طبيعتـــه العسكرية، يتمتع بهيبة وجلال وأناقة مفرطة، له عديد من الصلات الاجتماعية، وأسرته لها علاقات نسب ومصاهرة مع علية المجتمع وطبقته المخمليـــة.كـــتر للحكايات والأسرار، على اطلاع دائم على طبقته وعلى فضائحها أيضًا!

La crème de la crème هكذا أُطلق عليهم.

كان "أونكل هشام" أحد أبطال الحرب الذين أعادوا الكرامـــة والأرض للوطن.. سيادة اللواء كان نقيضًا لأبي وأمي في ذات الوقت، إنه الأب الصارم الذي لم أرَه والأم الحنون التي لم أعرفهافي نفس الوقت. لبيت هالة مزاج خاص غير بيتنا، أكثر أناقة وترتيبًا. حيث يزينه بيانو أسود عريق في غرفـــة الصـــالون المذهب، وفي الصالة صورة للرئيس السادات وبعض الصور التذكارية لحـــرب أكتوبر، وبعض الخرائط الواضـــحة أحيانًـــا، أو المبهمـــة أحيانًـــا أخـــري! خرائط بألوان كثيرة، عليها خطوط تشير إلى طرق أو إلى نقـــاط عســـكرية. وخطوط قطارات ومطارات صغيرة وبعض تلك الأشياء التي يفهمها الضـــباط الكبار والقدامي."أونكل هشام" رجل صارم المزاج يتحدث الفرنسية بطلاقة. ويحافظ على مواعيد الطعام، لا يمكن أبدًا أن يدخل بيته أحد دون موعد سابق. حتى أقرب المقربين منه. لم يكن يهتم، بطبيعته كرجل، بتفاصيل ما تمر به هالة،

أو ربما لم يمتلك المهارة لذلك. لم يكن ملتصقًا بابنته. لكنها كانت نسخة من أبيها بصرامته ودقته وامتلاكه لروحه.همها كان شديدًا للنجاح، ودومًا ما تستطيع أن تصل لهدفها الذي يكون نصب عينيها مما جعلها ابنة أبيها المدللة وقرة عينه، وخصوصًا بعد أن تجاوزت الثلاثين بلا زواج ولا علاقات، لم تمر عليها خيبات العشق أو لوعته، كما لم تمر عليها بهجة العشاق أو أفراحهم، ولم يدق قلبها لرجل حتى الآن، أو ربما دق ولم تعره انتباهًا! حرصها ظاهر على وأد أنوثتها في قمصانها الكاروهات، وجيترها الأزرق، والحذاء الرياضي، وبشرة بلا مساحيق أغلب الوقت.

اليوم مضي شهران على استلام هالة الشركة من السيد فريد، الذي يحزم حقائبه؛ استعدادًا للهجرة إلى أمريكا، ليقيم مع ابنته وأحفاده، بعد أن أرهق من العمل وحنى الزمن ظهره، وخصوصًا ما تمر به ابنته الآن من ظروف قاسية، خاصة بعد طلاقها من زوجها الأمريكي، الذي اكتشفت أنه يساكن فتاة شرق آسيوية، وكان حتمًا أن يساندها في محنتها بالرحيل إليها في بلاد الغربة.

كانت حياتنا على النقيض في معظم الأمور. بينما تفوقت لرأب تصدعات كثيرة في جدران حياتي، مدفوعة بسياط من نظرات أمي وأنها لن تحتمل مزيد من الفشل، وكي أتجنب أن أشارك أبي اللعنة التي تصبها في دعواتها عليه عقب كل صلاة، ونحيبها الدامع بأن "لا يربح ولا يكسب" بحق كسر خاطرها، وإذلالها أمام الناس، وأيضاً لأضمد جروحًا كثيرة أدمت روحي!!

تبكي أمي حين أقل بضع درجات أو حين أتأخر في الخارج مع أو عند هالة.. حين أذهب للكوافير لأقص شعري، أو أتأخر في جلب ما تحتاجه أيًا كان! تبكي بكاءً هيستيريًا. تلطم خديها وتنهار في فراشها لعدة أيام. مر وقت كنت أتغلب على مرارة تلك الأيام بإطفاء أعواد الثقاب في ساعدي؛ لأصنع جرحًا، فندبًا ربما احظي منها بقليل من الرحمة او الاهتمام البسيط

..تعددت الندبات التي هي آثار لتلك الحروق. مرت سنوات وبقيت تلك الآثار كنجوم تلمع، خلف كل ندبة ألم وحكاية.

كفتاه عادية أنهيت دراستي بنجاح ووجدت الرجل الفرصة، فتزوجت من حسام عقب تخرجي مباشرة لتسير حياتي في هدوء تقليدي _كرهته أحيانًا_ ثم حضر كريم ابني للحياة وبقيت بجواره لرعايته بالمترل عدة سنوات متتالية.

عانت هالة من تعثر في الدراسة، واستندت على أبيها وأمواله حتى تخرجت، وفضلت العمل عند السيد فريد صاحب شركة السياحة وصديق والدها الذي لم يكن ليعترض على توظيف ابنة صديق عمره لديه.. هالة فضّلت الانفصال في المسكن عن والدها كانت ترغب أن ترسخ نفسها كأنها سيدة أوروبية مستقلة ناجحة تحيا في مسكن مستقل، وإن كان لا يبتعد عن أبيها كثيرًا، أو تكتفي بقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه.

هالة هي مثال جيد لما يمكن أن يصل إليه الإنسان بعد سلسلة من المصادفات السعيدة هذا ما يظهر لي على الأقل، هي تجسيد حيٍّ لكيف يغزل القدر نسيج الأحداث لمصلحة شخص ما، وعلى مدى سنوات متلاحقة دون أن يخطيء لمرة واحدة!

****

والمدينة التي شيدها الإسكندر على الطراز "الهيبودامي" لها شكل طولي، قوامه شارعان متوازيان طويلان أساسيان، ثم زاد إلى أربعة مثل شرائط طولية، تقطعها شوارع عرضية أقل عرضًا وأكثر عددًا، لتصنع ما يُشبه رقعة الشطرنج، الشارعان الرئيسيان هما شارع "كانوبيك" الذي هو حاليًا شارع فؤاد، الـــذي يتقاطع مع شارع"سوما" الذي أصبح النبي دانيال، والممتد مـــن الشـــمال إلى الجنوب؛ حيث يقال إنه موقع مقبرة الإسكندر التي دفن بها عقب عودته مـــن بابل. الشركة تقع في قلب محطة الرمل، في القسم الغربي، وسط المباني الأثرية التي تركها العابرون على المدينة عامًا بعد عام.

كان يوم هالة الأول في الشركة هو اليوم الذي بـــدأت فيـــه التخطـــيط للحصول على مقعد الـــ"مستر" فريد كما يناديه الآخـــرون، وكـــان لهـــا في النهاية، كانت هالة تنسج شكل أيامها القادمة بكل الطاقات المتاحـــة لـــديها، وبكل المساعدات التي يمكنها اقتناصها من أيادي الآخرين.

بدأت هالة كموظفة حجز تذاكر طيران بإنجليزية جيدة ولكنة أمريكيـــة أنيقة وباردة، ودأب للنجاح، ودعمها حظ متوسط من الجمال. كان ســـببًا أن تشحذ ملكاتها الذهنية بشكل دائم، بالرغم من أن أسرة هالة على قدر من رغد العيش، إلا أن طموحها المادي كان غير محدود، لجَمَ شعورها بالتعالى الطبقـــي على الآخرين. تتحكم جيدًا في انفعالاتهامنذ صغرها، _كم كانـــت تدهشـــني الحقيقة_ وبوجهها الصخري حين تتسلم إنذارات إدارة المدرســـة، أو حـــين يوبخها والدها على الكوارث الصغيرة التي لا تكف عن ابتكارها، كما كانـــت بارعة أيضاً في إخفاء بغضها وحسدها للسيد فريد، الذي يعاملها كابنة ولـــيس

كموظفة لديه، هفت بشدة للقفز على كرسيه كمالك ومدير للشركة السياحية، بنشاط شديد وتفاني، وما منحته لها الأيام والسنين من خبرة في شركة "إليكس تورز" كان لها ما أرادت. الفتاة الصغيرة التي لم تحقد على قريناتها حقدت على رئيسها في العمل. وأطاحت به في النهاية.

****

داخل مقر إليكس تورز للسياحة تجلس هالة في قمة سعادتها. تشرف على دخول طاقم الأنتريه في غرفة مكتبها الخاص، وتطلب لي من ساعي المكتب عصير برتقال، بعد أن وصلت قدماي أخيرا أمامها.

خلف النظارة الكبيرة تختبيء عيناها الكبيرتان بكل ما فيهما من ملاحة ودهشة محببة للنفس، محبوستان بالأهداب الثقيلة والإطار، مثلمايرقد قلبها في الضلوع، ولكن ليس بذلك المجهود والمشقة التي تبذلها المرأة لتنأى عن الحب، ولا بصعوبة العمد وكبح المشاعر، ولكن بيسر وترفع عدم الاحتياج للآخر والانشغال بالذات وبناء مجدها الشخصي. عينان حادتان أيضاً، يمكن بسهولة قراءة جمودهما، تنطقان بالكثير من الولع والتحدي...ترتدي بدلة كلاسيكية كاملة، وصندل بكعب مرتفع، كل خطوة منه تصدر دقة على الأرض هي رسالة مفادها، هنا امرأة مهمة فلا تغفل عن وجودي أيها العالم!

طالما اعتقدت بالرسائل التي ترسلها أحذية النساء بشكل خاص، بعضهن ينتعلن الأحذية الخفيفة في رسالة، أنا غير مرئية، غير متاحة، أو أنا أحب الاختفاء، الأحذية المغلقة حول الأصابع متوسطة الارتفاع تقول: هنا روح قلقة، حائرة، متحفظة. لم تجد راحتها بعد! الأحذية البراقة المطرزة المرصعة بالأحجار تقول هنا امرأة مثيرة مزعجة ورخيصة المشاعر!

- طبعت قبلة على خد هالة قائلة: مبروك أنا سعيدة جدًا من أجلك.

- أنا أيضا سعيدة لأن السيد فريد أخذ وقتًا طويلاً كي يتزحزح عن مقعده من أجلي، غمزت بعينها ثم قهقهت بضحكة ماكرة..!

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هالة تنادي السيد بـ"فريد" مجردًا دون لقب "أونكل أو مستر"!!

سألتها:ستوصلينه المطار؟؟

هالة: لالا' بابا سيتولي تلك المهمة... لا أستطيع ترك الشركة هذه الأيام، العمال سيفسدون كل شيء بدون رقابة، ولا أستطيع أن أثق في أحد، أُفضل أن أكون متواجدة بنفسي. بسهولة ويسر، ودون مشقة تكلف مشهد درامي عند الوداع، طوت هالة صفحة السيد فريد من حياتها، وبدأت صفحة جديدة. انسلاخها من المرحلة مثل انعتاق نور النهار من الليل، هاديء ومفاجيء، وحاد في ذات الوقت.

صحبتني هالة لمشاهدة المقر بعد إتمام أعمال التحديد والديكورات. كان شكل الشركة قد تغير كلية. في واجهتها يستقبل الزائر تمثالان رومانيان متماثلان من الرخام، على هيئة سيدة جميلة نصف منحنية، تسكب ماء من جرّة تحملها على كتفها، السيدة متشحة بثوب أبيض ملفوف حول جسدها، على شكل موجات دائرية صانعاً ثنيات بديعة، ويغطي كتف واحد بينما يبرز الآخر بنعومة واستدارة، أما شعرها، مجعد بكسرات بديعة تنسدل على الجبهة ثم تستقر على الأكتاف، يعلوه تاج من الورود. صالة الاستقبال كبيرة بيضاء مرفوعة على أعمدة على الشكل الروماني من الرخام الأبيض، تيجانها محلاّة بالنقوش الهلالية والزهور، خرائط للعالم القديم تزين الجدران، مكتوب عليها أسماء الأماكن القديمة، بحر القلزم، بلاد الغال، فينيقيا، بحر الروم !

تراصت مناضد متناثرة هنا وهناك، عليها مجسَّمات صغيرة لبواخر خشبية متفاوتة الحجم مصنوعة من خشب فاخر باللون البني تفوح منه رائحة بديعة، أما أشرعه تلك السفن من كتان أبيض وحبال وألياف مشدودة على ساري من الخشب، ومثبت على ظهرها تماثيل لبحارة يشدّون الأشرعة تشعر كأنها تسمع شدوهم، وكأن السفن من شدة اتقانها على وشك الإبحار!!

أما السقف يجعل الناظر إليه في حيرة متسائلاً من أين يا تري يخرج الضوء لينير المكان بهذا الضوء البديع؟ كانت هناك إضاءات جانبية، تنبعث من مصابيح مخفية بأناقة، يتدلي حول كل مصباح حليات على شكل ثعابين ملتوية كأنها ستنزل من السقف، في شكل بديع ومبهر، صوت خرير مياه وموسيقى يونانية ساحرة، صادرة من مكان غير معروف، وسائد جلدية متناثرة هنا وهناك، كراسي على شكل كفوف مرفوعة، يجلس الشخص في راحة الكف كأنه محمولاً بحنو ورعاية، في المنتصف طاولة خشبية مستديرة عليها بلورة ضخمة كأنها ماسة براقة على شكل الكرة الأرضية،كل تفصيلة خلبت عقلي تماما، أخذت ألتقط صورًا للمكان لأريها لحسام، الجدران والأرض والسقوف التحف وغيرها.

ثم سألت هالة - مين؟ هه مين العبقرى؟ ده مش مهندس ده ساحر!!

تجيب هالة بغطرستها التي اعتدتها: عادي يعني، ده زبون للشركة اسمه باهر حسن، مهندس ديكور "مطرقع" هاهاها

ثم تستطرد بنبرة صوت أكثر جدية وصرامة، باهر عارفني من مدة وهو متأكد أن "إليكس تورز" كمان سنتين ها تبقي أهم شركة في البحر المتوسط!!

هو خد مني مبلغ مش قليل، وفي نفس الوقت شركتي أكبر دعاية لمكتبه. تصميماته ها يشوفها سكان البحر المتوسط كلهم، تضحك غامزة بإحدى عينيها الزرقاوين! ثم تخفض صوتها قائلة.. لكن الحق، كل اللى يجي يبارك لي

ينبهر بالشركة...وبشغله! دسّت هالة يدها داخل أحد الأدراج وأعطتني كارت باسم مكتب باهر في منطقة "سان ستيفانو". تناولنا العصير في المكتب وبـــدأت ألاحظ قلقها، وفجأه قامت من على مكتبها، قرّبت وجهها مني قائلة بعـــد أن ضاقت حدقتاها الزرقاوان اللامعتان وسألت بجد بالغ: هل أعجبتك ديكورات الشركة فعلاً؟؟

ــرائعة.... مبروك حبيبتي صبرتِ ونلتِ

ــلايق عليكِ مكتب مستر فريد!!

هالة: أنا حاسة إني اتخلقت للمكتب ده ومتحمسة جدًا، عنـــدي طاقـــة بدون حدود..... ما تيجي نترل نحتفل النهارده.

ــ الاحتفال واجب عليّ تعالي اتعشي معانا أنا وحسام، إنت وحشـــتِ كريم جدًا..هنستناكِ

هالة: أوك، اتفقنا، على تمانية ونص.

اتفقنا هاستناكِ.

وفي طريقي للعودة للبيت لفحتني نسمات الهواء المنعشة الآتية عبر شاطيء البحر من نافذة السيارة.

صار صباحي أكثر ابتهاجًا، سعيدة جدًا لسعادة صديقتي... مبهورة أيضًا بالتطورات الحاصلة على الشركة، أتمني أن تتغير حياتي كما تتغير حياة هالـــة، أتمني الحصول على قليل من الإثارة والبهجة...

****

في نفس الوقت كان حسام ذو الوسامة "القياسية"، صاحب الوجه المنحوت، والقسمات الرخامية الشكل، وكأنه تمثال روماني قديم، والجمال الرجولي الذي لا يختلف عليه أحد، ولا يستشف منه أي انفعال أيضًا، يبدأ يومه في العيادة، فنجان قهوتة على المكتب في التاسعة والنص تمامًا، البخار المتصاعد الممتزج برائحة البن المحوّج يضخ النشاط في يومه، يراجع كشوف حجوزات المرضى و"ليستة" المواعيد ويتصفح الجرائد الإلكترونية من "اللاب توب" الذي يستقر على مكتبه العريض، حسام يقول عن نفسه دومًا "خلقت لأكون طبيبًا"! أو "أنا محظوظ جدًا كوني ابن أشهر أطباء المخ والأعصاب"، وصاحب أشهر العيادات في ميدان "وابور المياه"، ورثت العيادة بفضل أبي بعد تقاعده، لكن ورثت التخصص بفضل نبوغي، عمي وجدي من الأطباء، فكيف أخيب أنا طموح الأسرة، وأكون الورقة الجافة في شجرة مورقة!!

عمي كان نقيباً للأطباء ورئيس النادي الاجتماعي الشهير بالمدينة الذي يضم في جنباته صفوة المجتمع، أسرتنا من تلك الأسر التي تتوارث مهنة الطب، جيلاً بعد جيل، مثلما تتوارث الأملاك، وجينات لون البشرة، والعيون وملامح الوجه.

تخطيت لحسن حظي، وكوني ابن تلك الأسرة، كثيرًا من النابغين، سنوات من الشقاء قضاها أقراني في كلية الطب لتثبيت أقدامهم في عالم المهنة، وتجاوزت تلك المرحلة سريعاً. وحين أخفق أخي في بناء أسرة، وتم طلاقه بعد سنوات قليلة من زيجة فاشلة.. وددت أن أكون النموذج الناجح بالمقابلة مع أخي. أمل الأسرة الذي يقضي نهاية آخر الأسبوع في بيت العائلة.

أمي وأبي يلعبان مع ابني ونشاهد التلفزيون. ثم يراقبونني من النافذه حين أبتعد بالسيارة إلى شقتي. أو في سهرة في أحد المطاعم الفخمة مع ريم وكريم

الذي أطلقت عليه هذا الاسم لشدة الشبه بينه وبين أمه الجميلة.

أنا رجل جاد، عاشق ومجنون بمهنتي، ومخلص لزوجتي. تعرفت علـــى ريم صدفة في حفل زفاف أحد الأصدقاء، رغم كونها كانت بصحبة صديقتها هالة، لكن هالة كانت من ذلك النوع المزعج من النساء، سيجارتها لا تفارق شفتيها، عنجهيتها ممزوجة بنبرات صوتها الجهوريالذي لا احبه، عيناها تحمل ذلك القدر من الاقتحام للآخر والجرأة الوقحة،كنت أعلم انها "نسب يشرّف" نظرًا لمكانة أسرتها، لم أكن أرغب، قبل الارتباط، بذلك النوع من النساء الذي يستهلكني في معارك الظهور وإثبات الذات والتحدي والندية، وكانت المفاضلة لصالح ريم. كانت الفتاتان جد مختلفتين، بل متناقضتين، وربما كان ذلك التناقض هـــو مـــا جعل علاقتي بريم متوازنة ومستقرة، وفي بعض الأحيان كان يزعجني تحليقهـــا المستمر، ذهولها وشرودها أحيانًا، انسحابها من الحياة ونوبات الشجن والانطواء التي كانت تعتريها بلا سبب مفهوم، تمنيت كثيرًا أن أخرجها من دوامة أحزانها التي كنت أشفق عليهاكثيرًا!

في أحيان أخرى أتساءل: من تلك الغريبة التي تزوجتها؟ ثم ألوم نفســـي لماذا لم أتزوج هالة مثلاً؟! كان هذا السؤال يلح عليّ كثيرًا، ومالـــذي يعيـــب هالة؟ الحقيقة لم أجد أية إجابة. هالة امرأة رائعة وأكثر انطلاقًا، لكن ريم تفوقها حنانًا ومودة، قلبها أقل قسوة. أحيانًا أسخر من إجابتي تلك أيضـــا.. إجابـــة خارجة عن أي منطق عقلاني.. كل شيء كان جيدًا ومنظمًا في حيـــاتي ممـــا جعلني أشعر بتهديد خفي من المجهول، أن أفقد تلك الهبات الإلهية، التي أثارت دومًا حسد الآخرين، أن أفقد ثقة أبي ومحبة أمي لابنهم المميز، أو قلب وجسد زوجة رائعة ومُحبة، أسرة مثالية يحسدني الجميع عليها.

****

في المساء، كانت زخات المطر تنقر زجاج المترل من الخارج، الذي يواجه نوة الشتاء السكندري الأخيرة "نوة عوا" آخر نوة. بينما تنعكس أنوار الشموع من الداخل على نفس الزجاج، تصنع ريم الأكلات المُحببة لي ولحسام، بط مشوي بالبرتقال، أرز بالقرفة وخلطة المكسرات، شوربة وسلطات.. تدّور في بيتها الدافىء الموسيقي الفرنسية، التي تعرف ريم جيدًا أني أحبها كثيرًا. رغم كوننا صديقتين، وكوني أكبر منها بشهور قليلة، إلا أني أحس منها بحنان بالغ واحتواء شديد، ريم من هؤلاء اللواتي يقدمن كثيرًا من الود المخلص والحميمية الصادقة للمحيطين بهم، ورغم أنها أجمل مني، كما يظهر للآخرين، وأنها تزوجت وأنجبت بينما فضَّلت أنا الانغماس في العمل، لكن خياراتنا المختلفة في الحياة لم تفرِّقنا، كعادة النساء. لقد استقل كل منا قطارًا في طريق مختلف عن الأخرى، انطلقنا سويًا في اتجاهات مختلفة، لكن دومًا كانت هناك محطة مشتركة للتلاقي، عادة ما تبقي بعض النساء مشدودات لبعضهن بخيوط سحرية، قد تكون الصداقة هي ظاهر الأمر، لكن بعض المنافسة قد تكون الحقيقة!!

بيتها الدافئ الجميل هو استراحتي المفضلة قبل أن انطلق لشقتي ليلاً استمتع بشرب الكاكاو من يديها في الشتاء، كما أحب حلقات الكيك الذي تصنعه بمهارة، في الحقيقة أنا لم أكن أحب أبدًا أن أفقد ريم، لقد كنت أحبها حقيقة رغم اختلافنا.

كريم ابنها يسعد ويبتهج لحضوري و يطلق عليّ "لولي"....اعتبر نفسي أمه الروحية، وجوده في حياتي يمنحني كثيرًا إحساس الأمومة الذي افتقده قليلاً،

بعد مرور سنوات كثيرة نسيت فيها أمر الزواج. كثيرًا ما تخيلت نفسي حاملاً في طفل، حلمت مرات أن كريم جنين يتقلب في بطني وأنا أطهو الطعام لحسام، أتحسس في الحلم جلد بطني المشدود، وسرتي التي استوى نتوؤها، وافترشتها خطوط بيضاء، كأنها ضربات سياط من أثر شد الجلد، وأخرى زرقاء من أثر عروق الساقين المرهقة بحمل الطفل. أحيانا كنت أتخيل ثديي ممتلئين باللبن الذي يرضع منه كريم، وهو راقد في أحشائي تحت ضلوعي، لن يكون لي طفل ولا أريد، إنها أضغاث مشاعر غريزة بدوية تشعلها رؤية ريم بشعرها المهوش وانوثتها الفجة وأمومتها الطاغية، وانكسارها على الوليد الذي صبغ جيناتها بالشجن والألم يرتع في خلاياها، قلق الذئبة على صغارها!

لم أكن أكره شيئًا مقدار تلك العلاقات الزوجية وذلك التلاصق البغيض بين الأشخاص، ذلك الود اللزج، الذي لا يليق بالبالغين، الشراكة الإجبارية داخل مؤسسة قد تكون خسائرها باهظة عند فضها، كانت المساكنة حلاً نموذجيًا بالنسبة لي، في تلك الحالة يسهل كثيرًا بتر العلاقات الفاشلة بسرعة ويسر دون تكلفة مرهقة... يمكن تذوق أجساد الآخرين واختبار تلك النكهة المبهجة للمرة الأولى.. فض بكارة الاكتشاف الأول في حماية الحياد المطلق، والمشاعر الصلبة التي تكفلها قشرة رقيقة من التحضر والسلوك الدمث. لكن ذلك لم يكن يناسب أيضًا تحمل فاتورة خسارة اجتماعية، تنعكس على العمل أيضاً!

كنت أتمني كثيرًا وجود رجل إلى جواري، وفي فراشي البارد، ولكن لم أتخيل حينها غير أبي يحتضر من هول الصدمة. لم يكن هناك إمكانية أن يتفهم كيف أن الزواج التقليدي أكبر من احتمالي، وخسائره لا تتناسب معي، كان راضيًا بنجاحي الذي عوّضه عن ابن بجواره، وحين انفصلت عن أبي في السكن، رغم تقدمه في السن، كان يتملكني شعور طاغٍ أنه بإمكاني النجاح ومواجهة

العالم وأنا مستقلة تمامًا، امرأة ناجحة وثرية ومستقلة، ما أبدع هذا الإحساس!

ما الحاجة إلى رجل يفسد كل ذلك، حب وزواج وإنجاب وتملّك وغيرة وقيود وخلافات، سلسلة من التعاسة يمكن تحطيمها بكسر أول حلقاتها. لا دائم لي إلا أنا، لا أثق إلا في نفسي، ولا مكان لأحد بجواري، لن يحتملني أحد أصلاً، ولن أركن ظهري إلى من قد يطعنني فيه!! لم يكن أبي أيضا راغبًا في التطفل على حياتي الخاصة، طالما خط الجموح لم يتعد المسموح به اجتماعياً، وطالما كان نجاحي يوازيه، إن لم يكن يسبقه. لكن ما اتفقت عليه مع أبي، ضمنًا دون إشارات واضحة وحديث صريح، أن عدم الزواج أفضل من زواج غير لائق يجلب له العار والإحراج. وسط هذه المواءمات سارت الأمور بسلام... وهكذا كنت أظن.

في تمام التاسعه رننت جرس مترل ريم، كما تقول دومًا، البيت يمتلىء بضجيجي الذي يعبىء مسام المكان بالبهجة، بينما حسام لا يزال يحلق ذقنه في الحمام.. صحت بنشوة حقيقية لم أختبرها من قبل قائلة: أعظم سيدة أعمال في مصر والبحر المتوسط وصلت تا تاتا...!

ألقيت بحذائي الرياضي جانبًا، وبحقيبتي الجلدية الكبيرة على أحد كراسي الصالون، واحتضنت كريم بوحشة حقيقية ومنحته تشكلية من الحلوى والشيكولاتة الفاخرة التي جلبتها من أفخر محلات الشيكولاتة خصيصًا له. لقد كبر الصبي وحمل ملامح أمه، المندهشة، الطفولية.

جلست منهكة بعد يوم عمل طويل على كنبة الصالون، النافذة تسمح بمرور هواء منعش، لكن الممر الصغير المؤدي للمطبخ يسمح لرائحة الطعام أن تملأ المكان. نصف مستلقية، نادتني ريم من المطبخ، وخرج منه ضجيج اصطكاك الأطباق الصيني والكاسات.

– مش ها تودي معايا الأطباق... عاملة كل اللي نفسك فيه...

تجاهلت طلبها وأجبت بتكاسل شديد: أقولها أعظم سيدة أعمال تقـــولي ودّي الأطباق، الست دي أفهمها إزاي يا ربّي!!!

تحلقّنا نحن الأربعة حول المائدة المستطيلة، في طرفها الشرقي المجاور للنوافذ الشرقية للشقة، التي تتوسطها البطة المستقرة وسط رقائق البطاطس الذهبية ذات اللون الشهي والرائحة الفواحّة، بجوارها شمعدان فضي يضـــيئها في المنتصـــف، حسام على رأس المائدة، جلس كعادته بملابس أنيقة وعطر خفيف، يقول: من نجاح إلى نجاح يا هالة أنت مجتهدة وتستحقين كل خير.

خروج فريد من الشركة بالشكل والسعر ده "ضربة معلم". إنتِ اخدتي المقر بثمن ممتاز، كفاية الموقع عالبحر، وسمعة الشركة تساوي ملايين، ومتأكد أنه بعد خمس سنوات تقريبًا، اسم هالة وشركتها هايتعرف في المتوسط وجنوب أوروبا كله... مشاكل ابنة السيد فريد جاءت في صالحك تمامًا، لتعرضي عليه في الوقت المناسب شراء الشركة، عندما شعرتِ باستقرار فكرة الهجرة لـــدي ابنته في رأسه، كذلك بعض التعثرات التي تواجهها الشركة نتيجـــة لأحـــداث الأزمة المالية العالمية، مصائب قوم عند قوم فوائد. قهقه كثيرًا بعد تلك الجملة ثم أردف، ممتازة يا هالة، كنتِ صاحبة أفضل عرض قدَّم للسيد فريد، والفضـــل أيضًا يعود لعلاقة أبيك بالسيد فريد الممتدة لسنوات، وشعوره بأن الشركة لـــن تذهب لأيدٍ غريبة. ابتسمت وأنا أساعد ريم في ملء الأطباق..حسام يعـــرف جيدًا طموحي وقدرتي الفائقة على تحديد أهدافي، يعرف أوجه الاختلاف بيني وبين ريم، ويقدر ذكائي دومًا، كما يحب ريم لدرجة العشق،كنت أيضًا أحب وجوده كصديق في حياتي، لكن كنت أكره تملكه لريم، كان مزعجًا بشـــدة، بينما استسلمت هي لتلك العلاقة، لذلك كنت أحاول كثيرًا ألا أهتم لذلك. واصل الحديث وإسداء النصح عن أهمية إعادة هيكلة الشركة وظيفياً، الاستغناء عن العمالة الزائدة، تطوير قسم الماليات، أصغيت جيدًا لأفكار حسام الذي له

ولأسرته باع طويل في إدارة الأعمال الخاصة والمشاريع التجارية، أخبرته بعد فترة من الصمت عن نيتي الاهتمام بالسياحة الداخلية وفتح أسواق جديدة، وكذلك السياحة الدينية، في كل الظروف سياحة مستقرة، ورغم ارتفاع تكاليف رحلتي الحج والعمرة، مازالت أملاً وحلمًا لكافة طبقات المصريين، الطبقة الوسطى ترى في رحلة الحج مكافأة التقاعد للآباء، بعد تزويج أبنائهم وإتمام مسئوليتهم تجاههم، أما الطبقة العليا تفضل السفر في رحلات الحج والعمرة الفاخرة قصيرة المدة التي تصل إلى المائة ألف جنيه.

قال حسام ساخرًا: إنه لا يتصور قيامي بتنظيم رحلات الحج بعد أن كان السيد فريد يرفض الفكرة نهائيًا لسنوات طويلة، ويفضل التعامل مع السياح الأوربيين، خصوصًا سكان البحر المتوسط الذين يعرف أذواقهم، ويجيد التحدث بأكثر من لغة متوسطية.

سألني حسام: ما خبرتك في السوق السعودي؟ ما علاقاتك يا هالة بالفنادق السعودية وشركات الطيران، وماهي أصلاً معلوماتك عن المناسك؟ إنها خطوة غير مدروسة وتحتاج لمزيد من الوقت!!

قلت: أعرف ذلك تماماً، نحن شعب متدين بطبيعته، لكن انظر المد الديني يا عزيزي الذي زاد بشدة، انظر القنوات الفضائية الدينية وانتشارها، حتى الدعاة الجدد الذين باتوا ينافسون الفنانين شهرة، انظر إلى انتشار الحجاب والنقاب في شرائح متنوعة اجتماعيا..

المظهر الديني يكسب الإنسان احترامًا الآن، حتى لو كانت قشرة كاذبة. لقد انتهي عصر الباشوات والباكوات، اختفي أصحاب الاقطاعيات وأصبحت الشهادة الجامعية وأخواتها من الدرجات العلمية لا تحمل قيمة أكثر من الحبر الذي كتبت به،ولا تعني اي قيمة حقيقية ؟ بعد أن صار التعليم مجانياً منذ الثورة لعنها الله، الثورة التي ساوت الرؤوس في الفقر ومنحت الشهادات لمن لا

يستطيعون كتابة أسمائهم بصورة سليمة، اختلط الحابل بالنابل كما يقال، وأصبح المجتمع غالبية من الغوغاء المهمشين الجهلة، وقلة من الأثرياء الفاسدين المرتبطين بالنظام بشكل ما، والسواد الأعظم، من الطبقة المتوسطة التي تحتمي بالدين، لتكسب نفسها مهابة واحترامًاغير مُكلف، وتتمسك بالطابع المحافظ ليميزها ويكسبها شكلاً جديدًا للوجاهة، تلك الموجة لها متطلباتها وخدماتها، لا يصح أبدًا أن أتفرج من بعيد، الموضوع ليس إيدلوجيا يا حسام، الموضوع بيزنس وسوق لازم أدخلها...

تابعت الحديث بهدوء.. السياحة الأوروبية متذبذبة بالأحداث في المنطقة، حرب غزة، ارتفاع سعر الدولار، الأحداث الإرهابية هنا وهناك، نُذر حرب أمريكية ضد إيران أو سوريا، نمو اقتصادي بطئ في مصر بسبب فساد حكومي وترهل إداري، وتوترات طائفية تستغلها الميديا الإسرائيلية جيدًا لتحويل أو لسرقة السياحة الأوروبية إليها، باعتبارها واحة الديموقراطية والتقدم في الشرق الأوسط، الأزمة المالية العالمية في أمريكا التي ألقت بظلالها على العالم، كل ذلك يؤثر على "الشغل"، لكن تبقي رحلة الحج في أمان نسبي عن تقلبات مزاج السياح الأوروبيين إلى حد ما، وعن حساباتهم الأمنية. أعظم موسم، يمكن أن يفسد، يا عزيزي، بتحذير سفارة مهووسة بأمن مواطنيها. أو بسبب تحرشات مهاويس ومرضي نفسيين أو بسبب حادث طائفي. اللعنة، كأننا نلعب القمار في هذا البلد.

لقب الحاج ما زال حلم الكثيرين يا عزيزي، ذلك الوسام الذي ينتظر أعضاء نادي المعاشات!

صمت حسام، ثم قال –بابتسامة نصف ساخرة– موجهًا حديثه لريم: هالة تعرف من أين تؤكل الكتف!! تقول هالة في قرارة نفسها: حسام هو الرجل المثالى ، الرجل الذي يعرف أين تخطو قدماه وإلى أين؟ الواثق في ذاته، طموحه

إنه مثار إعجابي على الدوام.

كنت أشعر في ذاتي أنه لن يحتملني رجل، ربما أبدو شخصًا بغيضاً، ربما تكون هذه هي الحقيقة!

أعرف مثالب شخصية حسام وعيوبه جيدًا، أتحاشي الصدام معه أو منازعته إياها. أعلم جيدًا أن ذلك سيكون خطأً لا يغتفر. وأترك لريم عين الرضا، لذلك كانت العلاقة هادئة ومستقرة بيننا، لم أكن أغار منها أيضاً، بل في قرارة نفسي، لم أكن أقبل أن أحيا حياتها، ذلك الاستغراق اللانهائي في ذاتها وفي أمومتها. التوحد مع ماضيها. تلك الخطوط الممحية بين أمسها ومستقبلها. كانت ريم تقفز فجأة لعشر سنوات وتحكي عن لفظ أخوالها لها ولأمها. عن انقطاع رسائل أبيها، ثم تعود لتحكي عن مدرسة كريم وعن الترتيب لمستقبله وعن أزمات حساسية الصدر التي تصيبه، وكأنها تنتقل بالنقر على أصابع بيانو متلاصقة بسلاسة ودون أي نشاز!!! كان يصيبني الذهول، أي خلايا دماغية تتحمل هذه النقلات، وأي امرأة تلك التي أدعوها صديقتي؟!. كما كانت ريم أيضًا مرتاحة لشكل العلاقة بيننا، وتعرف جيدًا كيف أري في حسام سندًا لها وصديقًا حقيقياً ليس أكثر.

****

انصرفنا جميعًا من على مائدة العشاء، حسام منتشياً بالعشاء. سعيدًا بوجودي ومحبتي، ما أعجب ما تفعله وجبة جيدة ودسمة بالرجال. بهجتي غمرت المكان، كما يقول، وأنا أيضا سعيدة لهالة، أتمني من أعماقي أن تنجح في إدارة تلك الشركة الكبيرة. ورغم هواجسي الكثيرة بخصوص طموحها وانغماسها المبالغ في العمل، وانصرافها عن الزواج وتضاؤل فرصتها في الحصول على أسرة مستقرة وطفل، خصوصًا مع تدهور صحة أبيها.

في الصالون، يشرب الجميع الشاي. تتحدث هالة عن شكل الشركة التي تغيرت كليةً بفضل (باهر حسن) مهندس الديكور، واقترحت أيضًا على حسام، المرور على هالة لرؤية الشركة بنفسه.

– ليتنا يا حسام لو نستطيع أن نغير من شكل البيت وأثاثه نحن أيضاً، مضي وقت طويل منذ زواجنا، لم نقم بتغييرات في البيت، نحن أيضًا بحاجة إلى تغيير.

يطرق حسام برأسه قليلاً يفكر.. يخشي كثيرًا أن يدخل غرباء بيته، يخشي أن يحرك أوراقه من مكانها، يضيق أن يقبل ببصمة آخر على حياته، قد تنافسه على إعجاب الآخرين، لكن فكرة التجديد تغويه، يستطيع دعوة أصدقائه الآن بفخر، إلى بيته، لمشاهدة أحدث أفلام السينما الأمريكية، آخر الأسبوع. ويستطيع التباهي أمام أبيه وأمه بذوقي، وحسن اختياري لأعمال الديكور. إضافة إلى فضائلي الأخري، يمكنه دس وردة أخري في باقة حياته المنسقه بعناية، أعرف كيف يفكر جيداً!!

أجاب بعد تفكير: حسنًا، لا بأس، لنرَ تصوراته أولاً، وإن اتفقنا نشرع في العمل بعدها.

ترك حسام مهمة أعمال الديكور لي، مع ميزانية معقولة أستطيع التحرك من خلالها.في الصباح قررت أن يكون تجديد البيت هو شاغلي في الأيام المقبلة.

****

وهج

(٢)

في منطقة "سان ستيفانو" حيث شيد فندق "سان ستيفانو" الحديث، على أنقاض الفندَق الأثري الذي بناه "بوجوس نوبار" ابن نوبار رئيس وزراء مصر، على طراز المنتجعات الفرنسية والبلجيكية الفاخرة التي تطل علـــى الشـــاطىء الفرنسي، ثم أصبح محلاً لتجمع النخبة من سكان الإسكندرية في عَشـــرينيات القرن الحالى تقريبا. منطقة سان ستيفانو أطلق عليها ذلك الاســـم قبـــل بنـــاء الفندق أصلاً، ومكان الفندق هو محل قصر "الكونت استيفان"، أما الحي فأطلق عليه ذلك الاسم حيث كان يضم كنيسة "ستيفانو" التي بناها الكونت "إيتيان" على اسم القس "استيفانو" ١٨٦٣، وبقي الاسم حتى بعد هـــدم الكنيســـة في الثمانينات، الفندق يبعد قليلاً عن طريق الحرية الذي كان اسمه سابقًا "ســـترادا روزا"، وترام الرمل ذي العربات الزرقاء الجميلة التي تعتبر نزهـــة للمـــواطنين ووسيلة مواصلات في نفس الوقت، الترام كما يسميه أهل المدينة كان ينتهي في سان ستيفانو في ذلك الوقت. ومن جهة أخري يطل علـــى شـــاطئ البحـــر المتوسط. شهد الفندق أحداثاً كبيرة مرَّت على المدينة، وحروبًا عديدة، كان له مدخلاً على الشاطئ استعمله الملك فاروق سابقًا كمرسى لليخـــوت. علـــى الشاطئ المقابل، كانت توزع دعوات، لافتتاح المواسم الصـــيفية في منتصـــف الأربعينات، توزع على النخبة، مكتوبٌ عليها: بمناسبة ابتداء الموسم الصـــيفي، تتشرف إدارة فندق وكازينو "سان ستيفانو" بإحطاتكم علمًا بأن الفندق سوف تفتح أبوابه، نأمل تشريفكم لتمضية عطلتكم طرفنا على الأرقـــام ٦١١٨٤ - ٦٣٥٨٠ثم تمّ إغلاق الفندق في الحرب العالمية، كي لا يكون مدخله من النفـــق

المواجه للشاطئ مدخلاً للعدو (الألماني)، وطريقًا للقيام بأعمال تخريبية أو لدخول المدينة. حيث مصر ترزح تحت الاحتلال الإنجليزي لا تكاد تبصر لها مستقبلاً، متورطة في حرب عالمية لا ناقة لها فيها ولا جمل. ثم تم تأميمه في العهد الناصري. في الستينيات من هذا القرن، قامت شركة أخري حكومية بإعادة افتتاحه، لكنها لم تنجح في إدارته، وفي الثمانينات نازع فندق "سان ستيفانو"، الترلاء والشهرة، فندق "هلنان فلسطين"، الكائن في حدائق المنتزه، حيث قصر الأسرة الملكية العلوية، قبل الإطاحة بها في ثورة يوليو ١٩٥٢، شهد فندق "سان ستيفانو" بعد ذلك مباحثات السلام بين الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين. مرت سنوات طويلة حتى دار الصراع مرة أخرى، لمحاولة الفوز بصفقة إعادة بناء وتشغيل الفندق، بين عدة شركات كبرى ورجال أعمال، كان من أبرزهم، رجل الأعمال محمد الفايد، انتهى ذلك الصراع بفوز شركة "هشام مصطفي"، أحد رجال الأعمال من أبناء المدينة، بالصفقة، ليقيم فندقًا ضخمًا في نفس الموقع، وسلسلة من الكافيتريات والمطاعم العالمية.

تغيرت المنطقة كثيرًا. هنا كانت فيلات كأنها جزر من الجمال وسط أمواج من القبح، تركها سكانها تحت إغراء النقود التي عرضها مقاولو الأبراج، لترتفع الصروح الأسمنتية العملاقة مكان الفيلات، أو للهجرة إلى كندا أو أوروبا للحاق بالأحبة الذين شقت سفينة حياتهم أمواج الحياة إلى عالم جديد.

في شارع صغير وموازٍ لطريق البحر، في إحدى الفيلات المجاورة للفندق، والتي نجت من الهدم ومن مساومات ملاّك الفندق الجدد وبقيت شاهدًا على أزمان، ربتت على وجنة المدينة أحيانًا وصفعتها أحيانًا أخرى، وطعنتها في ظهرها في أحيان أخرى!! ، صمدت هنا لسنوات فيلا "حسن باهر". الفيلا مساحتها صغيرة جدًا لا تزيد عن ٣٠٠ متر، لها باب معدني، وحولها سور

متوسط الارتفاع، تتمرد على سطوته غصون الأشجار المحبوسة خلفه والمزروعة من سنوات طويلة، يجازي البستاني تمردها بتشذيبها بمقصه الحديدي العمـــلاق. أعلى الباب، الذي تظهر حديقة الفيلا من خلاله، جرس كهربي. ذهبت حسب الوعد المسبق المحدد ودققت الجرس.. ففتح الباب من تلقاء نفســـه، بعـــد أن فتحت دائرة الأمان "الإنتركوم" التي يضغطها المهندس "باهر" من داخل الفيلا، للسماح لدخول الزوار. المكان عبارة عن مبنى نصف دائري، تحيطه حديقـــة، مكون من طابقين، ذو نوافذ مرتفعة جدًا تصل إلى حوالى المترين، في مقدمتـــه مشاية، ليست طويلة، وتماثيل على هيئة أسود على يمين ويسار المدخل المكسي بأرضية من البلاط الملون، على شكل نجوم، طراز قديم كان يتم تركيبه بطريقة التعشيق ليعطي شكلاً جمالياً. زينت أعلى النوافذ بزخارف ونقوش من الجص، وتناثرت عدة أشجار ياسمين تجاور شجرتين للنارنج بثمارها البرتقالية الزاهيـــة، وزهورها البيضاء، ووقفت نخلة، عجوز ووحيدة، خلف المبنى، وحوالى ســـت شجرات موز بأوراق عريضة خضراء. تطل من خلف السور الدائري شـــجرتا أكاسيا عجوزتان، الفيلا هي غابة صغيرة مليئة بشوالى الـــزرع المتنـــاثرة هنـــا وهناك، لكنها ليست مجرد غابة، إنها مضيئة بقناديل بديعة بشكل خلاب، تتدلى من غصون الأشجار كأنها ثريات صغيرة، تعكس ألوان الزجاج الذي صـــنعت منه، إنها غابة مضيئة!!

وجدت بستاني وحيد يروي الزهور هنا وهناك، ويكوّم أوراق الأشـــجار الجافة المتساقطة في أكوام صغيرة تمهيدًا لجمعها، ألقيت التحية وعبرت المـــدخل إلى المبني، حيث ثلاث درجات رخامية تقود الزوار إلى داخل الفيلا.

الفيلا لها بهو متسع بأرضية خشبية، إضاءات خفيفـــة، جـــدران عاليـــة ومرتفعة وباهتة، طلاؤها لم يتم تغييره منذ سنوات طويلة، ومُحِيت طبقات من أرضيتها الخشب بفعل الزمن، فضلاً عن أزيز مزعج يصدر من المشي عليها، في

البهو صناديق خشبية متناثرة على هيئة براميل، عليها وسائد من القطيفة الناعمة بتطريزات بدوية وألوان فاقعة، مكتبة كبيرة جدًا في المواجهة وسلم خشبي نصف دائري ينتهي إلى الطابق الثاني.

وقفت وحيدة في الردهة، أمام مكتب خشبي كبير لا يجلس عليه أحد، استوحشت قليلاً وانتظرت للحظات، لكن شعورًا هائلا بالتوتر والانقباض اعتراني، لا أحد يستقبلني هنا، ولا يوجد ما يدل أنه مكتب مهندس ديكور بأي شكل، المكان يشبه خليط من المراسم الفنية وشقق الاستوديو والفيلات المهجورة.

تنقلت عيناي على الجدران التي علقت عليها لوحات عالمية مشهورة أعرفها جيدًا، وأخرى لم أرها من قبل، معظمها لسلفادور دالى، ومونيه، وبيكاسو، لكن الأغلب كانت لدالي، لوحاته الشهيرة للساعات المتعرجة والذائبة، بعضها شاهدته من سنوات، والبعض لم أره، لكن تجاور اللوحات أربكني، خصوصًا مع الرهبة التي تثيرها الجدران المرتفعة بشكل كبير على طراز المباني القديمة ..

دقائق ثقيلة مرت حتى سمعت وقع أقدام باهر ينزل من أعلى الفيلا، حيَّاني مبتهجًا: أهلاً ريم، آسف اتأخرت.

توترت قليلاً إثر رفع الكلفة وعدم استباق اسمي بمدام.

أكمل باهر ترحيبه قائلا: أهلا ريم هانم نورتي المكان، آسف اتأخرت اتفضلي في المكتب..

تحبي مشروب بارد أو ساخن؟

- العفو ميرسي ليك.. أي عصير طازج.

تحدث باهر عبر جهاز صغير اعتقدت أنه جهاز لاسلكي قائلاً باقتضاب

وبوجه صارم: موز فريش!!

يرسم بسرعة مذهلة ابتسامة ودودة لا تشبه اقتضابة وجهه السابقة: هالة أوصتني عليك، طلباتك أوامر. أنا الديكور والفن عندي، أسلوب فكر وحياة، والعلاقة بالآخر تسمو على أية اعتبارات أخرى عندي....

ساد صمت ثقيل... رهبة وقلق، لم أعرف لهما تبريرًا، اسشعرت التزامًا بأن تدفع الكلمات إلى لساني، وأن أبوح بسبب الزيارة.

قلت بصعوبة وتلعثم: المكان هنا غريب... جميل... أقصد يعني، جميل لكن مختلف. توقعت أنه يكون مكتب حضرتك في أحد الأبراج السكنية المجاورة وأن يكون على الطراز المودرن، لم أتوقع أبدًا أن تكون فيلا قديمة..

تتسع الابتسامة على وجه باهر، ويقول متهكما:..: مخالفة التوقعات ليست دائمًا شيئًا سيئًا.. الانضمام للقطيع الاجتماعي يقتل التفرد.. تحبي تكوني متفردة مدام ريم والا نفر من القطيع!!

مباغتة السؤال والإهانة الواضحة والاستخفاف؛ أصابتني بالدهشة والغضب. ولم أقو على ابتلاع ريقي، يجب أن أرد له الصاع صاعين، يجب أن انصرف، لن أتعامل مع هذا الوقح، لكن كيف أبرر انصرافي؟؟! وكيف سيفسره؟ ربما سيضحك عليّ، وعلى ارتباكي، ولن أجد ما أبرر به تصرفي لهالة، ما العمل إذن؟!

قررت المجابهة، أجبت بحدة، جاهدت في إخفائها، ورباطة جأش أحاول استحضارها بقوة، لو أن مجموعة اتفقت أن تكون مختلفة عن الآخرين، قد يكونوا قطيعًا بشكل آخر.. حاولت القهقهة والتحكم بصوتي الذي كسوته بنبرة لامبالية، الفرق مش كتير مش كده؟!!

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه باهر: إيه رأيك في شركة "إلـيكس

تورز"؟ طبعًا إنتِ زرتِها بعد التعديلات..

بعد تجاهل رفع الكلفة في كلمة "انتِ"، قلت بعفوية وبحماسة: المكان رائع فعلاً يا باشمهندس، أنا مبهورة فعلاً بفكرك، المكان اختلف كثيرًا. كان هناك طقسًا خاصًا، الروح التي تعم المكان جعلته متميزًا جدًا، كل تفصيلة فيه مميزة!. تتسع ابتسامته ثم يكتم ضحكة بصعوبة.

صمت لبرهة، ثم انتبهت للمأزق الذي وضعت نفسي فيه، لقد كِلت للرجل مديحًا أكثر مما يتوقع، لقد دفعني أن أعترف أن سبب الزيارة هو انبهاري وإعجابي بتفرده وتميزه الذي ظهر عبر تصميماته... تجاوزت النقطة وقررت أن أدفع بكرة الحديث إلى ملعبه.. يا تري من أين استوحيت أفكارك الفنية؟

قرر باهر أن يتحدث ولكن ليس بإجابته على أسئلتي ولكن بالعودة إلى النقطة الأولى: هل تعرفين قيمة هذا المكان يا عزيزتي؟ كم يساوي؟ هل تعرفين تاريخ الفيلا هنا؟ من مالكها السابق؟ لم ينتظر مني إجابة، استدار مبتعدًا بخطوات بطيئة: دعيني أحدثك هنا عن المكان أولا!.. هنا اتخذ دورًا أكرهه كثيرًا، اتخذ دور الملقن.. لأنه جعلني في موقع التلميذة.

الفيلا دي كانت فيلا السنيور "بيترو مارتيني" أحد أهم أفراد الجالية الإيطالية الذين جاءوا إلى مصر في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي. والبلد تدين بفضلهم إلى الآن، أكيد سمعتِ عن الجالية الإيطالية ودورها في اسكندرية؟

ساد بعض الصمت لكن باهر تابع الحديث، الخديوي اسماعيل استعان بالفنانين الإيطاليين لافتتاح قناة السويس حيث عزف "فيردي" أوبرا عايدة، كورنيش الاسكندرية نفسه بناه المعماري الإيطالي "أفوسكاني"، جاء "بيترو ماريتيني" مع أسرته من ثلاثينات القرن الماضي، وده كان صديق لأبي "حسن باشا" وهو أحد أبطال المقاومة ضد الإنجليز في مصر، كان صديق "بيترو"، وكانوا شركاء في محل ثريات وأنتيكات مشهور في منطقة الإبراهيمية. السنيور

بدأ بمحل صغير في أحد مداخل العمارات ثم اشتري المحل المجاور لينشــىء أول جاليري في الشارع للأنتيكات والثريات التي كان يقوم على استيرادها بنفسه أو تصنيعها أحياناً، كانت الأنتيكات وأعمال الكهرباء صناعة وتخصص الطلاينة كما كانت البقالة تخصص اليونانيين، أما الرهونات والتجارةفكانت من نصيب اليهود والأرمن. الجاليات المختلفة لجأت إلى الأسكندرية هربًا من الاضطهاد في بلادها أو من الحرب، الأجانب كانوا حوالى أربعين في المئة من السكان ولكل طائفه دينها. كنائس تجاور المساجد، تجاور معابد اليهود. وكانت الإسكندرية كوزموبوليتانية في أوائل القرن، أكثر من إيطاليا نفسها!

قبل الحرب العالمية الثانية كانت أعداد الإيطاليين حوالى ستين ألفاً. يعملون في الحلاقة والمقاولات، أعمال الكهرباء، في الأربعينيات غنَّى الإيطاليون مع المايسترو "كورودوني" مع معبد "إلياهو حنابي"، تعويضاً عما فعله موسليني مع اليهود. أما الملك فاروق فدعى الملك الإيطالي "إيمانويل الثالث" للإقامة في مصر بعد هزيمة دول المحور من الحلفاء، وعاش في اسكندرية ودفن فيها سنة ١٩٤٧.

تعرف "بيترو" على حسن باشا صدفة، في نادي اليخت عــبر صــديق مشترك، وتوطدت صداقتهما، كان المهاجر الإيطالى الطموح في حاجة للنقود التي كانت مع حسن باشا الذي كان أكثر طموحًا هــو الآخــر. راغبًــا في الاستقلال بنشاط اقتصادي بعيدًا عن أسرته المتخصصة -جيلاً بعد جيــل- في مصانع الغزل والنسيج.

واجه أبي جدي باهر باشا، ولاقى صعوبات كبيرة جدًا في إقناع أســرته بالانفصال وعمل أنشطة مختلفة عن نشاط العائلة الاقتصادي، وأسرة أبي كانوا لا يثقون في "ماريتيني"، وكانوا يرونه شابًا سكيرًا، وغــير صــالح، ويســعى لاستغلال أبي وأمواله، والحقيقة أن الاثنين نجحا في الشــراكة الاقتصــادية وفي الصداقة، وفي اللهو أيضاً!.

سارت الأمور على ما يرام، الجاليري نجح وأصبح مقصدًا لأثرياء المدينة وطبقتها المخملية، بفضل إدارة بيترو الذي تفرغ تمامًا للمكان... أنشئنا سوياً ورشة صغيرة من خيرة صناع الأنتيك الأجانب، الذين عمل معهم آخرون من أبناء البلد لإنتاج القطع الفنية في مصر، بدلاً من الاعتماد الكلي على الاستيراد، يمكن القول أن أبي كان رجل صناعة وتجارة، وسارت الأمور بشكل جيد، في النهار عمل جاد، وفي الليل كانت سهرات الصديقين في كازينوهات المدينة الممتلئة صخبًا ورقصًا وشراب، الحياة كانت تسير على ما يرام، لم يعكر صفوها شيء.

****

في أحد الأيام من ســـ١٩١٥ـنة وصلت "تاكوهي صوموغيون" مع أمها "مدام ناني" على ظهر مركب قادمة من الأردن، بعد أن عبروا الأراضي السورية هاربين من تركيا، في ذلك العام، غزا الروس الحدود التركية الشرقية، وجنّــدوا بعض الأرمن كطابور خامس، وزودوهم بالمال والسلاح فقامــت الحكومــة التركية بمذابح ضدهم، وطالت بعض المسلمين القاطنين في تلــك الأمــاكن، ومذابح أخرى للآشوريين والكلدانيين والسريان. هرب البقيــة الباقيــة مــن الناجين، عبروا الجسور واجتازوا الأنهار، من له ستة أبناء ترك بعضــهم تحــت أقواس الجسور وعلى ضفاف الأنهار، كان الجو شديد البرودة والثلوج تتساقط بغزارة، هجّرت الحكومة الأرمن وبعض المسلمين من تلك المناطق، ووصــلت أعداد الضحايا والنازحين إلى ما يزيد عن المليون أرميني. فروا إلى سوريا عــبر الصحراء، ومنها إلى لبنان ومصر ودول أخرى. وصلت "ناني" مع أمها، بعــد رحلة قاسية، إلى مصر، وتشرد باقي الأسرة في عدة بلاد وفقــدوا الاتصــال، ببعضهم البعض، لسنوات عديدة، من القاهرة إلى الأسكندرية، التي انتقلت مدام "ناني" إليها، وقضت شبابها تحمل آثار تلك الحروب والمآسي في ذاكرتها. انغرس صوت الرصاص بمشهد هطول الأمطار وتلك الجثث المقلوبة على وجهها، بينما يسيل الدم الأحمر القاني من أسفلها مكونًا أخاديدًا صغيرة، لا تلبث ان تختفي. يخفف المطر من حدة ذلك اللون وتتشرب الأرض ذلك الماء، أصوات الصراخ والنحيب، لوعة الأمهات اللواتي يبحثن عن أولادهن الذين اختفوا تحت القصف داخل البيوت المهدومة، أو تحت الجسور أو على الشواطئ، الجنود ذوو الأحذية الثقيلة السوداء يقبضون على سلاسل الكلاب المتوحشة، يقتحمــون البيــوت ويقتلون من فيها بدون أية مناقشة. الأمهات الملتاعات اللاتي تحــاولن الهــرب

ببعضٍ مما تستطعن حمله.. أحيانا دجاجات أو عنزات، تعين الأطفال بـــالبيض واللبن على طول الطريق. بعض القمح والأرز. ما استطعنه من المال أو الذهب مربوطًا على بطونهم، وأحيانًا يكون الوقت أضيق من حمل الأطفال أنفسهم. أو عجائز العائلة؟. لم يكن سهلاً أن تبدأ في مكان آخر إلا موشومة بذكرى تلك العذابات. حتى بعد أن كبرت في الأسكندرية، وتزوجت وأنجبت، لم تبرحهـــا تلك الهواجس أبدًا، أن تفقد طفلتها الوحيدة في أحد الأزقة، أو أن تفلت مـــن يدها في أحد الأسواق، أن تبرح شقتها في الإسكندرية، فتعود لتجـــدها جثـــة هامدة تحت ركام البيت، الذي ربما يقصفه الروس أو الأتراك فجأة، بعـــد أن ينتقل أوار الحرب إلى مدى أبعد، فيلاحقها الموت حتى مدينتها الجديدة. زوجها أيضًا فُقد في تلك الحرب. بعد مدة، ظهر لها خال، أقام معهـــم واســـتقروا في الإسكندرية، ولم يكن وجود الأرمن في مصر غريبًا ولا جديدًا، فقد حلّوا مـــن القرن الخامس عشر تقريبًا، لما لهم من دراية بنظم المحاسبات التجارية والإدارية الغربية، ووصلوا إلى قمة نفوذهم في القرن التاسع عشر، حين تولى "نوبار باشا" رئاسة وزراء مصر وكان أرمينياً، عملت مدام "ناني" بالخياطة لسيدات المدينة، على ماكينة صغيرة في غرفة استأجرتها لها ولابنتها، بعد أن عُرِفت في منطقـــة الشاطبي، افتتحت مشغلاً للخياطة تديره بنفســـها، "تـــاكو" كانـــت بمثابـــة السكرتيرة لأمها ومديرة الحسابات في نفس الوقت، شقة في الدور الثالث على أحد الشوارع الجانبية الضيقة المطلة على البحر... الجدران تســـاقطت بفعـــل الرطوبة. ضلفات النوافذ يصعب إغلاقها. الأرض من أعواد خشب السوّيد التي تصدر أزيزًا مزعجًا. لكن الأثاث أنيق رغم بساطته. زينته المدام بمفـــارش مـــن البرودريه، وهي مفارش من القطن والكتان مفرغة علـــى هيئـــة طيـــور وورد وأشكال هندسية دقيقة، ومطرز حوافها بخيط من الحرير المتين. البيت كله قطعة من الأناقة الفريدة. يزيده ما تلاقيه النسوة من الجارات من ترحيـــب واهتمـــام

ودقة في العمل، بعيدًا عن تحفظ التعامل مع الترزي الرجل.

مرت سنوات وأصبحت شابة يافعة وجميلة يتابع باهر قائلاً: و"تـــاكو" كان الاسم الذي يفضل أبي مناداتها به، فقد كانت صديقة لبيترو، وقد أحبــها أبي بجنون، كان الحي يعتبرهم "خواجات" رغم محبته لهم، أما حياتهم، فكانــت أكثر قلقًا وانغلاقاً من طبيعة حياة بقية الجاليات في الإسكندرية. كانت مــدام ناني مسيحية متدينة جدًا، محافظة ومنغلقة، لم تحب الاختلاط بالأغراب أكثــر من اللازم، حسب تقديرها الذي تضعه لنفسها، وكانت تخاف علــى ابنتــها "تاكو" خوفًا مرضيًا، في حقيقة الأمر كانت تخاف فقدها، مع ذلك، كانــت أيضا سيدة ودودة مع جيرانها، تصنع الأكلات الأرمينيــة الحرّيفــة، أطبــاق البسطرمة بالبيض والطماطم والفلفل الأخضر الحريف، أطباق مــن الســجق الجاف والمشوي. اللحوم المشوية لها رائحة نفاذة بالبصــل والثــوم في نهايــة الأسبوع. ساعدت جاراتها المصريات كثيرًا وخاطت لبناتهن وبأسعار زهيــدة، أحيانًا بالمجان في "شوارهن". كان يمكن استثارة حفيظتها إذا دق الأطفال جرس شقتها ليغيظوها، أو حتى تشتهمهم بسباب أرمني مقذع، كــانوا يتبــارون في تفسيره على أهوائهم وفي تخمين معناه. أما "تاكو" فكانت أمها ترغــب في أن تتزوج شاباً كاثوليكياً أرمنياً مثلها، وذلك ليس بالأمر السهل، تعرفت "تاكو" على "بيترو" في حفل مع صديقة إيطالية مشتركة، بعد خلافات شديدة قاستها مع أمها بسبب الحصار الذي تفرضه عليها. أحبها أبي بجنون وكانت موافقــة مدام ناني على الزواج مستحيلة، وكان الأكثر استحالة موافقــة جــدي لأبي! لكن حدث ما حدث وتم الزواج بعد عاصفة، كأن نكبة حلت بأســرة أبي، حيث فسخ أبي اتفاق الخطبة مع ابنة خالته، وهي بنت العائلة الكبيرة والمقيمــة مع خالته في القاهرة، فازدادت نقمة جدي باهر على "بيترو"، الذي رأي أنهــا محاولات للاستحواذ على أبي كليةً، وصب نقمته عليه، وحدثت شبه قطيعة بين

الأب والابن، حين يأس جدي من عودة أبي إلى طوعه وتحت جناحه. مرت سنوات قليلة وأنجبتني "تاكو" ورحلت بعدها مباشرة وفجأة! كانت تعاني من مرض في القلب ولم تتحمل كثيرًا، انكسر أبي بعدها من الحزن، أصبح أرملاً في ريعان شبابه، وله طفل رضيع، عاد أبي إلى سياج الأسرة طائعًا أو مضطراً، ليجد ابنة خالته "طنط مَلَك"، على عهدها، مازالت تحبه وتنتظره، وكان في حاجة إلى من يقوم على تربيتي، فتزوجها، أما "بيترو"، فقد ظل الصديقان على عهدهما من الوفاء والإخلاص. وسلم أبي بوجود "بيترو" في حياة ابنه بكل ما عناه هذا من مساوىء ومحاسن من وجهة نظره.. حتى...

يصمت قليلاً، ويطلق زفرة ضيق طويلة، لكن الحرب... اللعنة عليها.

الحرب نجحت في تفريق الصديقين، في سنة ١٩٤٠، لما اقتربت سفن القوات الإيطالية من سواحل طبرق، وكانت كل التوقعات أن تنتصر على من يقف في وجهها. اعتقل الإنجليز كثيرًا من الشباب الإيطالي المتهم بالاشتراك أو تأييد "الحزب الفاشي"، حينما بلغهم اقتراب الإيطاليين من سواحل الشاطىء الليبي وقرب وضع أقدامهم على غرب مصر، واعتقلوا أيضًا كثيرًا من المصريين المؤيدين للفاشي. نُذر الحرب القادمة جعلت كثيرًا من الإيطاليين يرحلون عن مصر. وكثيرون اعتقلوا وانقطعت أخبارهم. ومن تبقي باع ممتلكاته بثمن بخس وقرر الهروب بحياته من البلد، "بيترو" كان له حدس قوي بما تحمله الأيام في جعبتها وخاف على نفسه كثيرًا. لم يكن قد تزوج وليس له صاحبة أو أهل أو أقارب، فترك لأبي حسن باشا، صديق عمره، توكيلا بالتصرف في ممتلكاته بالإدارة والبيع للنفس، مكّنته من حفظ حقوق "بيترو"، في حال أسابيع قليلة من تلك الأحداث، اختفي بيترو! انشغاله في الشهور الأخيرة لرحيله، باعد بينه وبين أبي. الذي انشغل بهمه أيضًا وبابنه الصغير. كان كلاهما منساقًا لضربات القدر.

يصمت قليلاً..ثم يقول: لا يشعر بالوحدة من يختبيء من الذئب!

. قال حارس الفيلا إن زوار فجر قد اقتادوه إلى مكان مجهول، دون حتى حقيبة ملابسه. لم يكن لبيترو أي نشاط سياسي، ولم ينخرط في أي تنظيمات إطلاقًا، كما حكى لي أبي، ولكنه كان حانقًا على وجود الإنجليز في مصر، وكان يرغب في جلائهم. كان إيطالياً حتى النخاع في المقام الأول، ثم مصرياً، وفي الحالتين، كان الإنجليز أعداءه، كان المصريون يكرهون الإنجليز الذين نهبوا واحتلوا بلدهم لسنين طويلة؛ فأحبوا "هتلر" نكاية في الإنجليز، ودعوا له في صلاتهم، وتمنوا انتصاره في الحرب، وقد ألّفوا إشاعة وصدقوها أن "هتلر" أسلم، وغيَّر اسمه إلى "محمد هتلر" أو "الحاج محمد هتلر".

المصريون شعب متدين، شديد التعلق بالإيمانيات، لم يتخيلوا أن يكون مخلصهم من الإنجليز ليس واحدًا منهم.. كان "بيترو" مطلوب من الإنجليز في قائمة من المصريين والأجانب المتعاطفين مع الفاشي، ومعلومات عن نشاطهم، أماكن تجمعهم، مصادر تمويلهم، ومعلومات أخرى كثيرة. اختفي "بيترو" ولم يظهر بعدها، لم نعرف هل قتله الإنجليز أم الحكومة؟ هل أجبر على العودة إلى إيطاليا أو نفي نهائياً من مصر؟ لم نعرف إلى الآن، لكن أغلب الظن أنه مات تحت التعذيب في محاولة لاستنطاقه بأية معلومات!

شردت في تلك اللحظة أحاول تخيل مصير "بيترو"، أتخيل أساليب التعذيب التي استخدمها الاحتلال الإنجليزي ضده. شعرت بغصة في حلقي حينما تذكرت ذلك الإنسان الذي مات غريبًا على أرض غريبة في قضية ليست، ربما، قضيته!

أوصانا أبي بعد رحلة شاقة من البحث عن صديق عمره وبعد فشله في العثور عليه، بعد الاتصال بأعلى المستويات لمعرفة أي خبر عن "بيترو"، وتمكن منه اليأس في النهاية. أوصانا بتسليمه نصيبه من المحل والمصنع في حال ظهوره في

أي يوم من الأيام يظهر فيه. مع أنه سلّم يقينًا، في داخل نفسه، بموت "بيترو"، أو بمعني أدق بتصفيته داخل المعتقل أثناء استجوابه من الإنجليز، أما جدي فقابل كثيرًا من المضايقات والتحقيقات، خففت وطأتها صلات أسرته بالقصر، وحمته من مصادرة أمواله، رحلت بقية الجالية الإيطالية تدريجياً، وبقيت قلة تحتم عليها الرحيل بعد ثورة ١٩٥٢، وما ظهر من توجس عبد الناصر للغـــربيين بشـــكل عام. قلة قليلة جدًا قررت أن تبقى في مصر لا يزيد عددها عن ٣٠٠٠ شخص إيطالي.

****

تدنو خطوات الخادم، الذي هو سكرتير وحافظ أسرار بنفس الوقت، من بعيد، بحذائه الرحالي على الأرض الخشبية، حاملاً كأسًا من عصير الموز، قدَّمه لي باهر ومازال التأثر بادياً على وجهه وطفق يتابع: هذه الفيلا، فيلا "بيتـــرو"، التي استلمها أبي، واعتبرها جزءاً من الأموال التي دفعها في شراكتهما، ونقلـــها باسمه، لكنه أوصاني بردها إلى "بيترو"، في حال ظهوره، في أي وقت، ووصانا بالاحتفاظ باسمه على بابها،كأنه يحب أن يقول، هنا كـــان يعـــيش "بيتـــرو" صديقي، الذي حرمت من أن يكون له قبر أقف عليه لأرثيه!. هنا اجتمـــع أبي و"تاكو" و"بيترو"، الأصدقاء الثلاثة المغضوب عليهم من الحياة.

تناولت رشفة من العصير وجدتني أقول وفاء نادر يا باشمهندس!

تابع: كل شجرة هنا وكل لوحة، كل غرفة وكل زاوية، فيهـــا ذكـــرى وتاريخ.. الآن تساومني شركة رجل أعمال على شراء الفيلا، والتنـــازل عـــن العقد الصوري الذي منحه "بيترو" لأبي.. حين لاحت نذر الحرب. الشـــركة تعرض على الملايين مقابل الأرض، لتحويلها إلى سلسة من الكافيتيريـــات ذات الشهرة العالمية. ينبشون في عقود ملكية الأرض، يرسلون أحيانًـــا تهديـــدات بإغراق أساسات الفيلا لجعلها تنهار، يضغطون عليَّ لأبيعها.

– منطقي جدًا، المكان هنا شديد التميز؟

– باهر: لن تصدقي، المكان هنا ورائحة البحر من خلف الشيش الخشبي وشجر الموز الذي زرعه بيترو بنفسه، البوابة الحديد الفورجيه التي لعبت عليها في طفولتي بعد اختفاء "أونكل بيترو"، كل التفاصيل هي مصدر لإلهامي، هـــي كياني نفسه.

- هذا يعني أنك ربما لم تر بيترو، أو ربما مات قبل أن تولـد.. تحـاول جاهدة تقدير سن باهر، ربما هو أربعيني أو في أوائل الخمسينات. أو أزيد قليلاً.

يجيبها ضاحكًا: طبعًا لكن صوره مع والدي في كل مكان. يُخرج من المكتب الكبير في الواجهة ألبومًا كبيرًا للصور، يظهر فيه رجلان أحدهما بملامح شرقية له جسد ضخم وطويل القامة، وشعر أسود فاحم، يمشطه للخلف مـع آخر أوروبي الملامح، ضئيل الحجم، يبدو القلق على ملامحه رغم ابتسامة يجاهد في إخفائها، يلف ذراعه حول كتف صديقه، بسهولة، تكتشـف ريم هويـة الرجلين.. تستكشف أيضًا الزمن الذي عاشا فيه، حيث الصداقة والأناقـة في الملابس، والمطعم الشهير في خلفية الصورة.

يقطع باهر تأملاتي قائلاً: حكيت لك كثيرًا من الحكايات. أنا آسـف إن كنت قد أزعجتك. لكن كما قلت لك سابقًا الإنسان أهم من أي شيء حتى العمل نفسه.! انتبهتُ أنه قد مضت قرابة الساعة في هذا الحديث و لم نتحـدث حول شقتي بعد، لكني مازلت مشدوهة، مازالت أرغب في الاستماع إلى باهر، أصابني توتر شديد وحيرة مباغتة ثم قررت أخيراً البقاء بعد أن حسمت الصراع في رأسي وقلت: الطراز في الفيلا خليط ما بين المودرن، والتفاصيل البدويـة، وساعات "سلفادور دالي" على الجدران.. يعني مربك بشكل ما

باهر: "دالي" أيقونة فنية بالنسبة لي، جزء من تاريخي، وحيـاتي تـأثرت بمعرفتي بـ"دالي". تمرده، ومشاكسته، تطوره الفني، انتقاله من مرحلة رسـامي عصر النهضة إلى المدرسة السيرالية، عقب خلافه مع خوان زعـيم المدرسـة التكعيبية. الساعات الذائبة والسائلة هي دلالة على نسبية الزمن، كانت أعمال "دالي" مستمدة من عالم الأحلام، حيث صور الأشياء هي أشـكال مشـوهة وضبابية، يحاول تصويرها بشكل واقعي مع حضور عنصـر الطبيعـة، تخيلـي شخصًا مثل "دالي" كم سيلاقي من الصعوبات في إبـراز موهبتـه في وطـن

محافظ؟!!. دالي رفض أن يكون شخصًا من القطيع وتحمل الطرد من البيت والفصل من الأكاديمية الفنية في مدريد، كانت زوجته "چالا" هي ملهمته، المرأة يا ريم هي من تحفظ للفنان عقله وتجعله يستمر في الإبداع دون أن يتزلق للجنون.

بينما كنت محدقة ينتقل ذهني بين مشاهد سريعة، من كوني أنا نفسي قد أكون(چالا)، وباهر هو (دالي) المتمرد!!. أنزلق أمامه على كرسي جلدي لدِن رخو، نصف عارية، يقدم لي حبات العنب، كغواية وعربون محبة، بينما ألتهمها على مهل. يقرأ لي "دالي" أبياتًا من الشعر ويحكي لي عن فحولة أجداده العرب، الذين حكموا شبه الجزيرة الأيبرية لقرون، يحكي لي عن قصص عشقهم وإفراطهم في الجنس، وحبهم للثراء والترف في الملابس، وشرههم في الطعام والجنس، بينما يزيح خصلات شعره السوداء الناعمة عن جبينه، أتخيله نصف عربي، نصف أوروبي. بينما تفض فرشاته بكارة اللوحة البيضاء التي يرسمها لي. وبينما أشرد بعمق، رن هاتفي المحمول في الحقيبة وعلى الطرف الآخر كان حسام!!

- ها يا ريم ما هي الأخبار؟

- تمام لا تقلق، أنا بخير، قلتها باقتضاب.

- لا تتأخري يا عزيزتي... أمامي ساعة وسأعود للبيت.

- سلام

- سلام

****

في الطريق إلى البيت، شغل باهر تفكيري تماماً، ذلك الشخص الغـــامض، فنه وأفكاره، حديثه عن الماضي ورقته. يبدو رقيقًا ومهذبًا، عالمه ساحر، لكـــن لماذا يعيش وحيدًا؟ أم أن هناك امرأه لم يذكرها؟ ربما هناك "چالا" أو "تاكو" أو أخري مجهولة لم يحك عنها بعد..!! كيف يوجد من يحيا في هذا العالم المخيف الموحش، الفيلا خالية إلا من الأشجار والقناديل والمقاعد الجلدية المريحة. يوجد كثير من الوحشة والحميمية في ذات الوقت، كيف يبتكر عملاً مميزاً مثلما رأيته في شركة هالة؟. هل أستطيع أن أناقشه في أفكاره وأن أطرح عليه رؤيتي لشكل الشقة، أم أنني سوف أترك له الأمر برمته؟. تبدو الفكرة غير مريحة.

وصلت إلى البيت أخيرًا، وسأدع كل شيء لوقته.. على السلالم، جررت ساقي من التعب والإجهاد، ذهني مشوش ومشغول، دلفت إلى باب الشـــقة ثم ارتميت على الكنبة خلف الباب، وأضئت "اللامبدير" التي تلقـــي بضـــوئها إلى الصالة، لينير المكان بنور ذهبي خفيض، كل شيء حـــولي مرتـــب، أحـــاول احتضان المكان لأشعر بألفة مفقودة تثائبت مرهقة. ذلك الوقت من العام يبعث على الكسل. المغرب ألقي بظلاله على المدينة مبكرًا، حسام عاد اليوم مبكـــرًا ويعكف على قراءة نشرة طبية دورية تصله إلى البيت شهرياً، وقفت محتارة، وفي غرفة الصبي طبعت قبلة على جبين كريم، ثم استلقيت إلى جانبه. كانت الليـــة غريبة، لم أرَ هالة في أحلامي تضاجع حسام. لم أرها تمتطيـــه.. أو يمتطيهـــا!، لم أبكِ!. لم تدور سيارتي في دوائر. كنت مستلقية بهدوء ودِعة، كأني في انتظـــار الموت، في راحة وسكون، كأني بطلة لوحة "دالي"، كامرأة ملقاة فوق رقعـــة أسمنتية عائمة، بينما أسد ضخم مرقط آتٍ من السماء على وشك الهبوط فوقها،

جاهز لالتهامها أو اغتصابها أو سحقها.أو اختطافها إلى أعلى، لمكان مجهول تمامًا. كل شيء في آنٍ واحد...يصيبني مزيج من الهدوء والأمان والاستسلام التام للالتهام..كأنه الموت تمامًا..أو كأنه القدر.

****

يرن الهاتف فتهب ريم مذعورة من نومها تلتقط السماعة بصعوبة بالغة، نعم نعم.

ها يا ريم، هل مازلت نائمة؟. قومي من فضلك.كفاية كسل...سأمر عليكِ خلال ساعتين.. أرغب في زيارة مركز التجميل.. حضري حالك من فضلك.

لا ترد، تضع السماعة بوهن وتسترجع أحداث الأمس وحلم الليلة الماضية. استيقظت متأخرة اليوم، حسام ذهب للعيادة، وساعد كريم في اللحاق بالمدرسة، وبقيت هي في خدر النوم. ربما النوم في سرير كريم الضيق أو بعيدًا عن حسام، وربما مقابلة باهر سبب توترها وقلقها!. تنهض ريم أخيرًا متثاقلة وهي مازالت مكبلة بضلالاتها اليومية.

تضع ماء الشاي في الغلاية، وتُعْمل مفتاح التشغيل الكهربائي، ثم تضع السُكّر في الفِنجان. تنساب الأفكار وتتشابك حتى ينجح البخار في دفع غطاء البرّاد إلى الأعلى قليلاً، محدثًا صوت صفير. تصب الماء المغلي، تلاحظ تلك الرسوم على الحوائط السيراميكية للمطبخ، رسوم لزهور صغيرة جدًا ملونة، لقد انتقتها بعناية من أحد المعارض الكبرى، زهور ملونة صغيرة جميلة جدًا، لكنها في النهاية، زهور صغيرة تشبه زهور الآخرين. لماذا لا يتعامل مصممو الحوائط مع اللوحات العالمية في المطابخ؟ لماذا لا يكون الجدار جدارية كاملة لـ"دالي"،

أو لـــ"بيكاسو"، أو تخرج من الجدران موسيقى؟، لماذا لا يصبح السقف بلون السماء والأرض بلـــون البحر؟شـــغل حـــديث بـــاهر الســـابق افكارهـــا. . تصب أخيرًا السائل الحار في الفنجان.. تراقب تحول الماء الرائق من الأبـــيض إلى الأحمر القاني تدريجياً حتى يصبح أكثر دكانة بالتقليب، وتختفـــي حبيبـــات السكر في القاع، تحمله وتذهب للغرفة لتستعد للخروج.

****

• في مركز التجميل تدس هالة قدميها في الماء الساخن تعبث بأصابع قدميها في الرغوة الطافية على السطح بينما تنحني "سناء" عاملة "الباديكور" أمامها، استعدادًا لطلاء أظافر السيدة، بينما تعبث ريم بمبرد أظافر، وتمسك بمجلة فنية لها غلاف أنيق من تلك التي تمتلىء بها طاولة مراكز التجميل آتية من لبنان أو مطبوعة في قبرص بعملات أجنبية.

موسيقي عالية تملأ صالون التصفيف، سيدات متناثرات على الكراسي الجلدية، صبي صغير يجمع بقايا الشعر المقصوص من الأرض، العاملون يوزعون المجاملات ويكيلون الثناء والمديح على الزبونات، ويتبادلون الأحاديث المعتادة في ذلك المكان، عن فضائح الفنانين ولاعبي الكرة، وآخر تصفيفات الشعر وألوان الصباغ، ووسائل منع الحمل، وأسعار الخضار، ومشاكل المدرسين الخصوصيين، وأحدث خطوط الموضة والتتريلات في البوتيكات الحريمي. بعض فضائح العاملات المطرودات حيث فلانة تزوجت عرفياً أو أخري حملت من صديقها وابتلعت حبوبًا مهدئة لتنتحر.

كيفية عمل التاتو ورسم الحواجب وطرق إزالة الشعر المختلفة، ووصفات السمنة والنحافة، ومشاكل العنوسة وتبادل الخبرات في استقبال العرسان للبنات والبنين، وكيفية فك ربط "عِنَّة" الرجال، وطرق السيطرة عليهم كي لا يهربوا بعيدًا عن بيوتهم، وطرق تطفيش السكرتيرات الجميلات، وحيّل تفتيش الشغالات، قبل ذهابهن لبيوتهن، لاكتشاف المسروقات واستعادتها،

وغيرها. نكات ممجوجة يتبادلها الجميع، لا تخجل النساء من مصصفي الشعر. في ممالك النساء داخل محلات تصفيف الشعر لا يوجد رجال إلا بالمعنى الفسيولوجي. لكن في الحقيقة يصبح الرجل فردًا من تلك المملكة، يصبح امرأة بعد قليل! المصفف الناجح يستطيع الولوج إلى عقل الزبونة واكتشاف مزاجها، والولوج إلى روحها واكتشاف أوجاعها. ومحاولة بعث الابتسامة إلى شفتيها. مصفف الشعر هو الطبيب النفسي المداوي الذي لا تستطيع الاستغناء عنه، في المكان الأكثر حميمية الذي يمكنها التردد عليه دون أن يتم وصمها بأنها مجنونة!

حرارة وصخب أجهزة تجفيف الشعر، وصوت رنات أجهزة المحمول، الجميع يرتسم على وجهه انطباعات السعادة والفرح، فالزبونات يتركن همومهم بالمنازل ويأتين للراحة والثرثرة.

وحدها "سناء" قاطبة الجبين تعمل بانهماك وصمت شديدين، في هذا العمل لها سنوات، وتلك المهنة توفر دخلاً جيدًا للإنفاق على نفسها وعلى ابنتها من زواج سابق، بعد أن انتقلت إلى عصمة زوج جديد، لن يتحمل نفقات الاثنتين. تلاحظ ريم ذلك العبوس على وجه "سناء" وإلقاءها وجهها على اقصي قدر من الانخفاض، وحركات يديها المتوترة. تمسك "سناء" بمنديل ورقي وتجفف جبهتها ووجنتيها بشكل عصبي. لدرجة أن خديها توردا من كثرة الفرك بالمهالة.

- ماذا بك يا سناء... هل أنت بخير... لا تبدين على ما يرام اليوم؟

- أبدًا

- هناك شيء يا سناء.. هل ضايقك سعد؟ هل أنت بحاجة إلى نقود؟ تلمع عينا سناء بالدموع. تفر دمعة سريعة على خدها بينما وجهها جامد لا ينطق. وتردف قائلة: لا أبدًا بعض المشاكل مع والدة سعد بسبب موضوع الخلف!

سناء تعاني بشدة من عسف وجور حماها لأنها تأخرت في الإنجاب. فتقوم بتحريض ابنها سعد عليها، وتفسد عليها حياتها، تعلل سناء ذلك "بغيرة نسوان" لأن سعد ابنها الوحيد الذي ترملت عليه، ولم تكن ترغب في زواجه من مطلقة "خَرَجْ بيت"، عصى سعدٌ أمرها وركب دماغه، وتزوج سناء، ولم ينتهِ الأمر بذلك. فربما تحتاج سناء إلى جلسات تأديب، حتى لا تجرؤ وتعاير ابنها بكونها "صاغ سليم" أنجبت من زواج سابق في يوم من الأيام..

في زيارة السيدتين لصالون التجميل، دومًا، هناك سؤال يحيرهما، أي كدمة يحملها جسد سناء هذه الزيارة؟ هل آثار عاشق مليء بالشهوة؟ أم آثار زوج غاضب محقون بالغضب والغيرة والغل؟

لم تهتم كثيرًا "هالة" بأوجاع سناء، ولم تتخطَ عيناها النظر إلى أعماق روحها. تقفز نظراتها على جسدها، موزعة نظرات الاحتقار والحنق على المرأة المستكينة، لا تحمل شيئًا ضدها إلا انكسارها وذلها غير المبررين، تشعر بذلك في انكسار رقبتها على العمل، في ارتعاشة يديها، وفي اهتزاز ساقيها العصبي وعينيها الزائغتين دومًا وشرودها!

بينما ريم تحاول دومًا النفاذ إلى روح سناء تحاول سبر غوارها، والربت على جروحها، ترغب في فهم أي قوة تجعلها تحتمل كل ذلك الظلم وربما أي لذة تستشعرها في كل تلك المهانة والمذلة.

كان الحديث عن سناء في مقهي"كاليثيا" الكائن على البحر، هو الرفيق الدائم للمرأتين، بينما كان الخلاف هو النهاية الدائمة للنقاش. لم تفلح هالة أن تفهم من ريم أي تفسير "فرويدي" يجعل سناء تقبل هذه الحياة البائسة مع رجل تنفق عليه، ولا يربطها به أطفال! و فضلت هالة الارتكان إلى وضاعة تلك المخلوقات -من اسمتهم بسناء وأخواتها أشباه البني آدمين- وهوانها على ذاتها، بأسباب جينية بحتة لا تفسير لها، تقول هادئة في بعض الأحيان: "تشومسكي"

قالها "استبعد أن يكون العقل صفحة بيضاء عند الـولادة!". سـناء وأمثالها مكتوب في عقولهن (الذل ديني، به أحيا وعليه أموت)!.

أنهت المرأتان مهمتهما ونفحتا المـرأة جنيهـات البقشـيش المعتـادة. بينما تعبت ريم من نصيحة سناء، أن تنطلق وتتحرر من سطوة سعد وأمه، وأن تتنقل للعمل في عيادة حسام، لم تكن هالة تعير الأمر اهتمامًا.. ربمـا كانـت جلسات الكوافير، برمتها، نوعًا من الارتباط الإجباري بأنوثة تتعالى عليها هالة، وتدفعها إليها ريم دفعًا، بقدر القوة التي تكره بها سناء عملها، لـولا الحاجـة، كانت ترغب أن يكون لها عمل آخر. لكن ربما بقيت فيه حتى يشاركها سعد في الأجر والبقشيش ولا يتمادي في إيذائها أو يهجرها، اللعبة مفهومة وقواعدها معروفة سلفًا، تعرف سناء أن الأيام الطيبة والليالي الممتعة، والطعـام الطيـب، وكف أذي الأم السليطة، مرهون بما تقدمه من مال. تعرف أن شبح الطـلاق وشماتة الناس وانكسار "النِفس" مرهون باستمرارها في الانكباب علـى أقـدام الأخريات!.

****

دق هاتف ريم الجوال. على الطرف الآخر، كان باهر: صباح الخير يـــا افندم، آسف جدًا الوقت كان ضيق إمبارح.. كان نفسي نكمل كلامنا.. يـــا ريت يكون في عندك وقت مناسب النهارده، حوالى الساعة السابعة؟. لم تملـــك ريم إلا الإجابة: بنعم، مناسب جدًا. أردف باهر: محتاج جدًا أعرف حضرتك أكتر، أفكارك.. ذوقك... ونتكلم عن بيتك، وأفكارك بخصوص تطويره، رؤاك وأحلامك الخاصة. سكتت ريم قليلاً تفكر كيف يا تري تكون رؤاها الخاصة؟ هل رؤاها هي أحلامها؟ لم تعد تعرف لشيء حدودًا منذ مدة، أجابت: نعم..

اتفقا على اللقاء مساء اليوم التالي لا تعرف كيف مرت الساعات. مـــن نفس الباب الذي دلفت منه في المرة السابقة، دخلت ريم إلى فيلا باهر للمـــرة الثانية، برهبة أقل وشغف أكثر، ربما أكثر تحفزًا وحماسًا هذه المرة. ربما اليـــوم ستجد من يعرفها أكثر من هالة وحسام وأمها ومن كريم وســـناء والحـــارس والسائق وسايس الجراج، ربما سيقول لها اليوم ما هي رؤاها الخاصـــة ويســـبر أغوارها..

في انتظارها على كرسي في الحديقة، تحت شجرة كبيرة للموز، أوراقهـــا عريضة، تعطي المكان شكلاً أقرب لجو جزر المحيط الهادي، وأمامه طاولة صغيرة من البامبو، إضاءات الحديقة متناثرة في فوانيس معلّقة أعلى ســـيقان النخيـــل، والأشجار الباسقة. اليوم عينا ريم أكثر إلمامًا بالتفاصيل، وعقلها أكثر شـــغفًا بالكلام.

بوجه أكثر راحة وبشاشة وترحيبًا، استقبلها باهر، صافحها بحرارة حميمة

بعثت رعشة خفيفة إلى أطرافها، ليس شاغلها الأول الآن تحديدات الشقة ولكن الإنصات إلى باهر والولوج إلى عالمه.

في نفس البهو الخشبي الكبير بدا الجو أكثر سحرًا وأقل رهبة من المـــرة السابقة، دفء غَمَر المكان. ربما يرجع إلى استقبال باهر نفســـه. تحـــدق في المقاعد، الجدران والستائر، ولوحات "مونيه" و"دالي" و"بيكاســـو". لوحـــات مطرزة على قطع من الساتان والحرير الأصلي، مكتوب عليها آيـــات بـــالخط الكوفي، مقاطع لأشعار صوفية مرسومة على رقع جلديـــة،خطوطها متداخلـــة ومنحنياتها بديعة، وإن لم تقدر على تفسير معظم تلك العبارات!

يباغتها باهر: بتحبي «مونيه»؟

تجيب: طبعاً وارتاح للمدرسة الانطباعية...

-أنا أعشق "فان جوخ" و"دالي"، رغم أن خطوطهم مختلفة جدًا، وفنهم غير متشابه، لكـــن مـــا يجمـــع الـــرجلين أكثـــر بكـــثير ممـــا يفرقهمـــا. ..استطرد بعدها... الألم أكبر ما يجمع بين شخصين،كذلك مشاعر الوحـــدة والإحساس بالنبذ واللفظ من الآخرين؛ واضطرارنا إلى الاســـتمرار في الحيـــاة ككائنات غير مرئية، كظل لآخرين طوال الوقت، لم نستطع أن نكونهم، أو ربما لم نقدر، أو ربما لم نرد ذلك أبداً!!

تعرفي يا ريم "دالى" و"مونيه" ولدا الاثنان بعد عام واحد من وفاة طفـــل الأسرة الأول، الذي توفي سريعًا وسبَّب حزناً عميقاً لكلا الأسرتين. الأسرتان اعتبروا الفنانين العظيمين تعويضًا من السماء عن الطفل الأول الـــذي رحـــل؛ فعانوا من كونهم كائنات هامشية بديلة لآخرين ماتوا، وذهبوا إلى غير رجعة!

تصمت برهة ويرتسم ألم طفولي على وجههـــا، يكفيهـــا الاســـتمتاع بالجمال، لاحاجة لمعرفة المعاناة المختبئة خلفه.

يردف قائلاً: يتشابه الرجلان أيضا في العلاقة مع المرأة، العلاقة مع سيدة ما يجعل الإبداع يدب في أصابع الفنان، حين كانت "چالا" ملهمة "دالي" حتى وفاتها، كانت "سين" ملهمة "فان جوخ". أنا لا أتصور إبداعًا لا يكون خلفه معاناة، ولا معاناة بدون امرأة..

تصمت وتحاول الاعتراض على دور المتلقي: لكن الحب ليس من شروطه المعاناة، لا أتصور الحب مصدر السعادة الذي يبحث عنه الجميع؛ هو مصدر للعذاب والمعاناة! الارتياح والمودة كافيان للشعور بالود وتكوين أسرة.

ــ يبدو أن رؤيتنا للحب مختلفة يا سيدتي، الحب ليس هو الصحبة الجيدة، وبيت دافىء وأطفال يمرحون، ليس عشاء ومائدة وشمعتين، وهدايا للمناسبات المكررة كل عام، ليس كل تلك الرتابة، ليس عقد زواج يحبس جسدين، ويرهنهما لحساب الآخر!

يسود صمت ثقيل. تخجل أن تسأل وتتلعثم، وينحبس السؤال في حلقها ثقيلاً، تستجمع أفكارها مرة أخرى وتجيب: إذن ماذا ترى؟

- الحب هو تلك العلاقة غير المبررة غير الخاضعة لأية اشتراطات أو قوانين، لأية قيود أخلاقية واجتماعية، أو أية التزامات لقواعد بروتوكولية ملزمة، لا هدايا رأس سنة، الحب غير خاضع لمواعيد سنوية للاحتفال بأول لقاء وأول تلامس يدين، ولا أول قبلة ولا خطوبة بالطبع، ليس هدايا ذهبية أو ماسية متوقعة في مواعيد محددة، الحب ليس حفلات قران، وطفلين يملآن البيت ثرثرة، يأتون للحياة لتشغيل عدّاد الأحياء، وتزويد عدد التعساء على وجه الأرض، أطفال لاستكمال الصورة الجميلة الوديعة المستقرة في صورة امرأة ورجل وبينهما طفلين تزين الصالونات والموائد الجانبية في البيوت، أو تستقر في ألبومات صور تعرض على الأصدقاء والأهل، لنيل بوانص الرضا والنصيب العادل من الحسد والغيرة. بالمناسبة، هل شاهدتي فيلم SEVEN للمبدع

العظيم "مورجان فريمان"؟. كان يحكي لصديقه أنه انفصل عن حبيبته لأنـــه لا يريد إنجاب مزيد من التعساء في هذا العالم، فالعالم لا يحتاج ذلك حقًا. اعتقد أن هذا المشهد هو"ماستر سين" الفيلم.

تبلع ريم ريقها بصعوبة وتتذكر كريم، إذن ربما يعتقد باهر أنها أحد هؤلاء الحمقى، الذين ارتكبوا تلك الجناية وجلبوا مزيدًا من الأشقياء للحياة!!

يتابع باهر: ما يبقي جذوة الحب مشتعلة؛ التمرد التام والحقيقي والعميق، عدم التملك، التحرر بالمعنى الأشمل والأعمق والأقصى، الخوف من الفقـــد، الإحســـاس الحارق بالاشتياق، الخفقان المستمر، الوله الذي يملأ الجوارح حتى يكاد الجلد يتشقق عند رؤية الحبيبة، وتنسج عيون العاشق امرأة جديدة في كل لقاء. تستمع إليـــه ريم بشغف هائل. يردف قائلاً: هو أيضًا حالة من الفردانية المطلقة، هو حب الذات الذي يفيض و يعمر الروح باللذة الطاغية، فيحل على الحبيب، الحبيب هنا هو جزء مـــن الذات، هو الأذن التي تطرب بالموسيقى، هو اللسان الذي يستلذ بالطعـــام الدســـم الشهي. هو الأنف الذي ينتشي بطيب العطر، هو الجلد الذي يطرب بنعومة المخمل، هو كل الجسد الذي ينتفض بلذة الوصال.

كقطة تقف ريم على مخالبها من شدة القلق، لكن كثيرًا من الحرج يخنـــق حروفها، حين يكون حديثهما عن علامات الحب الفارقة !

- نرجع لـــ"دالي" و"چالا"، تخيلي يا عزيزتي كان اسمها "إيلينا دياكونوفا" هذا هو الإسم الحقيقي الذي غيّرته إلى "چالا"..."دالي" كان يفضل "أوليْفيتـــا" وهو تصغير لاسم "أوليفيا"، هل رأيتي الحب؟ إنه يراها أربع نساء مختلفـــات في نفس الوقت فكيف يسأم منها؟ يقول دالي: زوجتي هي انتصاري، هل يتخلـــى أحد عن انتصاره أبدًا، هذا ما كنت أقوله، لكن الحبيب هو جزء مـــن المحـــب نفسه، هو ينبوع اللذة الذي لا يمكن الاستغناء عنه!.

****

كوب الشاي يسقط من يدها فجأة. الحرارة تنهش فخذها، تهب واقفة، البنطلون يحتك بموضع السائل الساخن، يقوم باهر لنجدتها يضغط بفوطة موضوعة على المائدة المقابلة على البقعة السائلة يعتذر لها ويقول: لا تقلقي... لا تقلقي!

ينحني أمامها بينما يربت على ظهرها بعفوية،تزاداد اضطرابًا ولوعة، اقترابه والمسافة القليلة التي انتهكت بسبب الموقف، خصلاته السوداء التي سقطت على جبهته ورائحة عطره الممزوج برائحة معجون الحلاقة تنفذ سريعًا إلى أنفها، القرب يشعرها بزيادة التوتر، رقته في التعامل معها تبهرها لكن الألم يمنعها من النطق.

يستأذنها ليعود سريعًا بكوب ماء بارد لتضعه فوق موضع السخونة، تشكره وتفضل شرب الماء للمحافظة على رباطة جأشها، تستأذن للانصراف

– يجب أن أذهب الآن

– انتظري سوف أوصلك للبيت لا يصح أن تذهبي وملابسك مبتلة بهذا الشكل. دقائق وأكون جاهزًا.. استدار وخرج من الغرفة، سمعت وقع أقدامه مبتعدة على الممر الخشبي حتى اختفت تمامًا. لم تعلق رافضة العرض الطيب، تصمت... وتستجيب.

****

داخل السيارة المرتفعة، ذات الدفع الرباعي والإطارات المطاطية الكبيرة، المخصصة للطرق الوعرة، ذاك الطراز الأمريكي من السيارات التي يقل تواجدها داخل المدينة، لضخامتها وغلو ثمنها، إلا نادرًا مع أفراد الهيئات الدبلوماسية

الأجنبية، ورجال الأعمال الخليجيين أحياناً. وخلف الزجاج الداكن، تستقر ريم منكمشة، قتامة لون الزجاج، والمقاعد الوثيرة تشعرها بالأمان والاحتماء، ينطلق باهر على مهل وكأنما ترى الشوارع للمرة الأولي معه. وكأنها نسيت أين البيت!

أمام البيت حيث الشارع العمودي على طريق الكورنيش تهل رائحة يود البحر في تلك المنطقة، المختلطة بروائح أصناف القهوة المختلفة من الكافيتريات المتناثرة، أضواء اللافتات الملونة لسلاسل المقاهي الأمريكية الصاخبة بالموسيقى والأسر الجالسة بمرح تشق الطريق الهادىء في هذا الوقت المتأخر، لا يسألها عن الوجهة ويسير مع تعرجات طريق البحر بهدوء وصمت.

_ أشكر ذوقك.

– العفو يا ريم يا ليتني أستطيع عمل أي شيء لتخفيف ألمك.

– تنتبه.. إنه لا يعرف طريق البيت. تستأذنه في الذهاب إلى هالة في منطقة الإبراهيمية، تقول في نفسها ليس لائقاً العودة للبيت بسيارة غريب في وقت متأخر، لابد أن حسام سيترعج...لا تريد أن تقدم شروحات ولا أن تشرح، لا تريد أن تنظر إلى حسام. لا طاقة للمداراة. إحدى فنون الكذب الحميدة. التي احترفتها من سنوات. مداراة الخوف، مداراة الألم، مدارة اليأس وأحيانًا مداراة الشغف.! تستطيع التقاط أنفاسها عند هالة وكبح جماح الكلماتّ، المشاعر المختلطة بداخلها. موسيقى بديعة تنبعث من السيارة المرتفعة عن الأرض كأنها دبابة صغيرة يختفيان فيها من الآخرين.. تستمع في إنصات كأنها في محراب ما أروع اللحن!

–هذه المقطوعة "سوناتا ضوء القمر" لأجمل سيدة، بيتهوفن يهديكِ أهم سوناتا قام بتأليفها. تبتسم بخجل.ترد..

- فعلاً موسيقى بديعة جدًا

- فعلاً سوناتا ضوء القمر أهم السوناتات التي ألّفها بيتهوفن وعـددهم اتنين وتلاتين سـوناتا Appassionato والعاصـفة (The Tempest) والـHammerklavier سوناتا، لكن ضوء القمر أشهرهم، المفارقـة أن القمر الليلة مكتمل تمامًا، وبينافس أعمدة الإضاءة، في إنارة جمالك.... يا ريم.

تتعقد الكلمات على لسانها. أكثر وأكثر تتمنى أن يصـمت وتـتمنى أن يتكلم للأبد.

واصل: الموسيقى الكلاسيك هي قمة الرقي وإن كنت باسمع لموسـيقات أخري، لكن الكلاسيك بتدفع الإنسان للتوازن النفسي. ورغم الاخـتلاف في سرعة الإيقاع في السوناتا البداية بتكون بحركة قوية ومبهرة تسمى (اليغرو) ثم حركة أخري مرحة تحمل السعادة والفرح إلى المستمع، وتنتهي بنهايـة برّاقـة تسمى (الخاتمة). تجتهد ريم في حفظ المعلومات قدر مـا تسـتطيع وتواصـل التحديق بعيدًا. تنظر بقلق مباغت إلى الساعة التي قاربت الحادية عشرة والربع.

- الوقت بيمر معاك بسرعة جدًا، واضح إنك مهتم جدًا بالموسيقى والفن والديكور.. اهتماماتك متنوعة، شخصيتك ثرية جدًا يا...يا..باشمهندس باهر.

- أتمني يا ريم ألا أكون قد أزعجتك... أحيانًا أكون ثرثارًا جدًا. هذا ما يفعله الرجل الوحيد، أحيانا، في صحبة امرأة رائعة.

_ بالعكس..

يواصل القيادة تسأل ريم نفسها، هل هذه هي المسافة بين الطريق والبحر التي تراها كل يوم؟ .بماذا يفكر باهر؟ هل هو لطيف بشكل مسـتمر؟ كيـف يغضب؟ كيف يتشاجر؟ ما شكل النساء اللاتي عبرن في حياته؟ لماذا لم يكمـل حياته مع أيهن؟ هل يهينهن في نهاية الحكاية؟ يبدو متمرسـاً؟ هـل يخـرجن

جريحات من حياته؟ وأنا كيف سأكون معه؟ هل أنا أحد تلك الفصول. هـل برغب في اصطيادي؟. مجرد زوجة بائسة تعاني من الدوار وأحلام اليقظة طوال الوقت. هل أبدو في عينه امرأة سهلة. هل يرغب في تمضية ليلة واحدة ليتذوق صنفًا جديدًا من النساء. هل أبدو إحدى ربات البيوت المملات؟ هل أبدو أجمل من هالة مثلاً؟ هالة!!! اللعنة، هل حاول معها؟ لا أعرف شطحات هالة ولا إلى أي حد قد تتهور معه. حسابات هالة تجعل خسارتها أقل في كـل الأحـوال. وقلبها غير قابل للانكسار بأي حال.

قطعت الصمت السائد وحبل الأفكار الذي يكاد يخنقها..قائلة:

-أنا أحب الطراز العربي في الديكور،أفضل الخطوط الكوفية والأقمشـة المخملية في الوسائد، أحب البرافانات الأرابيسك.

– تمام ممكن أيضًا أن نستعمل إضاءات مغربية، المغرب مشـهورة جـدًا بالمصابيح البديعة من النحاس المفرغ والخشب الملون والأقمشة الشفافة، الإضاءه هي العنصر الأول بالنسبة لي، المصباح هو العنصر الأكثر إبداعًا، المصباح هـو الكشف، والستائر هي الحجب. روعة العنصرين هو اللعب على التبادل بينهما كشف ثم حجب، حجب ثم كشف، الإبداع هو التحكم في ذلك مثل البشـر تمامًا، الإنسان المحجوب تمامًا مثل صندوق مغلق، قد يكون جذابًا لبعض الوقت لكنه قد يفقد تلك الميزة بعد قليل، والإنسان المكشوف تمامًا لم يعد يثير فضول أحد، لذلك أنا أُفضل المرأة التي تعرف متى تنير مصباحها فتكشف نفسها، ومتى تسدل ستائرها فتُحجب، تعرف المساحات التي يجب أن تعطيها والوقت الذي تحتجب فيه، كالقمر تمامًا لا يظهر طوال الشهر. درجة الوهج الصـادر مـن الروح الوثابة والوجه الجميل، تلك الدرجة لا تسمح بالابتعاد ولا بـالاقتراب، تعرفي، العين يا ريم لا تري في الظلام الدامس. أيضا لا تري في ضوء الشمس؛ لذلك السيدة الذكية تعرف كيف يمكنها السيطرة على هذا، وهجها الخـاص.

مع تلك الكلمات تابعت هالة، ووجهها مركون على زجاج السيارة، لمعان الإضاءات على صفحة البحر السوداء التي تلتحم مع السماء بينما خط الأفق اختفى وبدا العالم أكثر سحرًا وبهجة.

وصلت السيارة تحت بيت هالة، تكتشف ريم أن الوقت الساحر في صحبة باهر قد انتهى، تحمل حقيبتها أمامها لمواراة بقعة الشاي، حين يفتح لها باب السيارة.

تشكره: ميرسي جدًا.

– يدس كفها بين يديه الحارتين ويقبض عليها بحرارة، قائلاً: طمنيني عليكِ من فضلك.

– سلام

– سلام

****

تفتح هالة الباب وعلى وجهها علامات الدهشة، الوقت تأخر. تسأل ريم: خير هل تشاجرتي مع حسام؟ يباغتها السؤال وتتذكر أنه عبر تلك السنوات التي تزوجت فيها حسام لم تصل خلافاتها معه إلى الحد الذي يضطرها للمبيت خارج المنزل إلا مرة واحدة، غالبًا كانت تكتفي بقضاء الوقت في بيت أمها، أو مع هالة طوال النهار ثم تعود لحسام سريعًا، فهو بارع جدًا في احتواء تلك الخلافات العابرة.

–لا تقلقي كنت أقضي بعض الأشياء ثم جلست في مقهى فانكبّ الشاي عليّ. وتأخرت و لم أرغب في العودة للبيت متأخرًا، مزاجي سيء جدًا يا عزيزتي. فضّلت ألا أضايق حسام، فضّلت أن ادعي أنك لست بخير..حتى

تنقضي هذه الليلة الثقيلة.

تبتسم هالة، تترك العنان لباب شقتها كي ينفتح على آخره فتدلف منه ريم إلى وسط الشقة، تختفي هالة قليلاً داخل ممر طويل مظلم بجوار غرفة الاستقبال؛ لتعد لها الحمام وتجلب لها بيجامة نظيفة. تأخد ريم حمامًا ساخنًا تتفحص نفسها، الشاي الساخن لم يترك بقعة على فخذها تحمد الله في سرها وهي تجفف نفسها، تلف البشكير حولها، تتمنى أن يحميها أو تختفي فيه للأبد. وترتمي على السرير، تنسى وجود هالة تمامًا حتى تكتشف وجودها في الغرفة الأخرى تقول حيث ينساب صوتها عبر الأبواب المفتوحة: عندك شاي ولبن وقهوة وبسكويت وفي أكل تاني في التلاجة، تصرفي يا حلوة. عندي شغل كتير جدًا لازم إنجازه الليلة ونتكلم في الصباح. قالت الكلمات وبقيت مختفية في الغرفة الأخرى تعمل على ضوء إنارة جانبي قبل أن تذهب أخيرًا في نوم عميق!!

تنام ريم أيضًا سريعًا تاركة المشروب الدافئ على "الكومود" المجاور للسرير ومخلّفة فوضى في الغرفة تدس رأسها تحت الوسادة حتى الصباح.

****

على الأرضية الخشبية تسطع أضواء مبهرة، موسيقى "تانجو" تنبعث من اللامكان بينما ترتدي ريم فستان أسود قصير يكشف كتفيها، يلتف حول عنقها حمّالتان بلون فضي معقودتان بشكل متقاطع من الظهر. حذاؤها الأسود العالي يدق الأرض بقوة محدثًا خبطات حماسية، تلف وتدور وتضرب الأرض. نشوة هائلة تعتريها، وجمالها تزيده وردة تستقر فوق أذنيها، بينما شعرها ذو التموجات مجموع من الخلف.

أما باهر، كأن وجهه الملتصق به له ملامح السيد "بيترو أرماني" المربع ذو

البشرة البيضاء المشربه بالحمرة، بطوله الفارع وجسده العريض، فيضرب الأرض بكعب حذائه معها يدوران بخفة وتناغم شديدين لكن بقوة وحماسة، الصالة المظلمة تحيطهما، بينما الأنوار المبهرة تلاحقهما أينما دق كعبا حذائهما، وتستقر أخيرًا بين ذراعيه، في حضنه حرارة تنبعث من صدره وعنقه لتطمئنها وتجذبها إلى عمقه السحيق، يلثم شفتيها بقبلة حارة، يعتصرها بين ذراعيه وكأنهما قاع الهاوية،كفاه يدوران في دوائر لانهاية لها على ظهرها كأنه يبحث عن منفذ إلى قلبها، تترك نفسها له لتذوب إلى مالا نهاية،خدر لذيذ يلف عقلها خفة أشبه بالطيران. يدق هاتفها المحمول على موعد ذهاب كريم للمدرسة لتقوم من نومها فزعة رأسها متعب يعاني من ثقل الحلم، تستجمع بدنها لدقائق، في الغرفة الأخرى هالة تنام على مائدة السفرة فوق كومة من الفواتير بينما "اللاب توب" الخاص بها شاشته سوداء في وضع السكون بعد أن نامت هالة من الإرهاق، تربت ريم على كتف هالة وتوقظها

– هالة... هالة حبيبتي.. اصحي أنا راجعة البيت.

– حاضر لقد قمت فعلاً. أنا صاحية تمامًا، بينما تنقبض عضلات وجهها بفعل الإرهاق والسهر.. أنا كمان لازم أصحى. أتوقع قدوم موظفين من الضرائب لـ(إليكس تورز) الليلة. هل بإمكانك توصيلي، أنا مرهقة فعلاً.. ولا أستطيع القيادة.

– لن ينفع يا هالة خذي تاكسي من فضلك. يجب أن أعود للبيت بسرعة حسام أكيد كان قلقًا عليّ.

– فعلاً،كان قلقًا بالأمس. اتصل، سأل عنكِ لأنك لم تردي على هاتفك المحمول، حكيت له قصة وهمية أني مريضة بأحد أمراض النساء تلك فعرض أن يحضر لي طبيبًا.. قلت له شكرًا يكفي أن تبيت ريم معي حتى الصباح، ماذا حدث فعلاً يا ريم احكي لي؟

في طريقها للخروج ليس وقته الآن.. ليس وقته فعلاً. تصفق الباب خلفها بعنف وتختفي.

****

ثلاثة شهور مرت على إعادة افتتاح هالة لـ"إليكس تورز". أصبحت الشركة حديث المجتمع الراقي، دعمتها شبكة هائلة من العلاقات التي طوّرتها مع الشركات المنافسة، وشركات الصرافة وأصحاب الفنادق وسائقي حافلات النقل وأمن المطار، وغيرهم أيضًا، تعرفت على سيدات مجتمع الثغر السكندري الراقي بسرعة -اللاتي تعرفهم بطبع طبقتها وعلاقات والدها- زوجات رجال الأعمال ومقاولي البناء، وصاحبات بوتيكات الملابس،كان لذلك بالغ الأثر على نشاط الشركة ونموها. مزيد من الموظفين تم تعيينهم، اعتمدت هالة على سائق لتنقلاتها، انغمست في العمل إلى حد كبير مما باعد المسافة كثيرًا مع ريم وقلّل لقاءاتهما، أما حسام، المشغول كثيرًا بالعيادة والالتزامات الأسرية تجاه أبيه، يحاول أن يدفعه لخوض انتخابات النادي الرياضي العريق الذي يحمل عضويته، أو يحثه على الانتساب للحزب الحاكم؛ حيث إن ذلك سيدعمه كثيرًا وسيساعد على تحقيق حلم الأسرة في إنشاء صرح طبي كبير، في كافة التخصصات، باسمها. رعاية ريم له تساعده كثيرًا على المضي في طريقه، لكن ما يقلقه هو صمتها وشرودها الدائمان، بعد أن استبدت بها وحشة شديدة وشجن غير مفهوم!

****

يومًا بعد يوم يحتل باهر مساحات من وجدان ريم، يتسلل عبر مسامها يلعب دور المفكر والحكيم والصديق، أصبح يملأ تمامًا تلك المساحة التي لا

ينازعه عليها أحد، وفي ذات الوقت لا تريـد عَنْوَنَتـها، ولا تـأطير العلاقـة بمسميات. يكفي أن يمضي كل شيء بسلام ودون أن تطأ العلاقة على رقبـة أحد. تمضي معه وقتًا طويلاً في الحديث معه عن أي شيء وكل شيء. يملأ ذلك الفراغ البارد في عالمها. أصبحت ريم أيضًا صديقته المقرَّبة، العلاقة التي تتوطـد بحذر، يومًا بعد يوم، هي سرها الصغير الذي لم تشارك فيه أحدًا. بالرغم أنه لم يكن في الأمر ما يشينها. تخلو إلى نفسها أحياناً، تتذكر زوايا حديقـة الفـيلا المشمسة، أو رائحة شجرة الياسمين التي يشربان القهوة تحتها أو السلالم الرخامية التي تزينها أصص الزرع الأخضر، التي يشرف عليها باهر بنفسه، يحدثها أحيانًا عن قيمة أدب "يوسف إدريس" والمساحات التي احتكرها لنفسه في الحديث عن المرأة كما لم تفعل أية امرأه. يحدثها عن قيمة "تشيكوف" في الأدب الروسي أو إسهامات "سيمون دو بوفوار" في الفلسفة الفرنسية، كانت "بوفوار" أيقونتـه المقدسة، يمضي أوقاتًا طويلة في الحديث عن علاقتها بـ"سارتر" وعلاقتـها في ذات الوقت بعشيقها الأمريكي (ايغر). يمنحها أحيانًا اسـطوانات موسـيقية لتسمعها أو كتب من مفضلاته، أو يبحران سوياً الإنترنت لقراءة شـروحات على أشهر اللوحات العالمية. حين تعود، يكون الحد الفاصل بين يقظتها ونومها قد انتهك تمامًا، ولأن باهر شغله بيسر وسهولة، لم يكن يضايقها إلا خوفها أن يسبر الآخرون أعماقها لمعرفة المجهول الذي تخفيه. هي نفسها لم تكن تعـرف هذا المجهول. حرصه البالغ على تجاهل الحديث عن حسام كان يشقيها ويريحها في نفس الوقت. شقاء وخز الضمير. وخز وجود رجل آخر يحتل كيانها كليـةً وراحة ذلك الهروب أيضًا، كانت تشعر مع باهر أنها جيدة جدًا وعلى ما يرام.

قالت: لم أعد أنا يا باهر. أنا لست تعيسة ولا سعيدة. أنا ضائعة تمامًـا، الأرض خائرة تحت قدمي. لا أعرف ما يعتريني، اختفت الحدود بين اليقظة والنوم بـين الحلم والحقيقة، أقوم لا أعرف هل أنا هالة أم ريم؟ هل أحدث حسام أم أحـدثك يـا

باهر؟ هل كريم هو ابني أم ابن هالة؟ أتأمل بطني الخاوي لا علاقة للطفل بي... اندهش حين يناديني يا ماما! متى أنجبت هذا الصبي الجميل. هل هو ابني حقًا؟

أشعر أن أبي معي في الغرفة وأمي ماتت وانتقلت إلى سماء أخرى، أخوالي يجلـدونني في أحلامي بالسياط. أشعر بضربات السياط تمزق لحمي، وخيوط من الدماء تنساب علـى ظهري. قد أقضي الليل كله منبطحة على بطني مثل دودة أرض، وحين أقوم لا أجد أثرًا للسياط، أتجول بين جدران البيت واسأل نفسي هل سأقضي هنا عشر سنوات مقبلـة، تنخرط ريم في بكاء مرير وتقول أنا لا أنتمي إلى أحد، ولا إلى مكان، أنا امرأة غريبـة تمامًا ليس لي بيت ولا أسرة وزوج، أنا شبح امرأة أخرى يعيش في جسدي، هذه المـرأة ستأتي يا باهر يومًا وستسترد روحها من جسدي حين يستقيم الحال، لا أعـرف أيـن سأكون وقتها!!

يلثم باهر يديها ويحتضنها قائلاً : اهدي من فضلك..تعالى نجرب شـيئاً لطيفاً... اقتادها إلى حديقة الفيلا قائلاً: تفضلي وأشار إلى أريكة خشـبية في الحديقة تعالى ارتاحي، اغلقي عينيك.. وانصتي إلى صوت الطبيعة، ماذا يمكنك أن تسمعي؟ لا شيء، هدوء وصمت.. بدأ في دفع الأرجوحة بتؤدة ولطف. بل يمكنك الإنصات أكثر، حتى الصمت له صوت.. إنه صوت الطبيعة. بإمكـان أي شخص تدريب حواسه وتنميتها، أيضًا يمكن تدريب العضلات أو التمـرن على الغناء، وضبط مخارج وتون الأصوات، يمكن التدرب علـى الصـمت.. الصمت التام.. حاولي أن تستمعي إلى الصمت ستجدينه صوتًا محببًا يشبه خرير المياه تمامًا. تستجيب له وتخضع تمامًا، وحين تبدأ الأرجوحة في الثبـات علـى حركة متوسطة، كأنها هدهدة رضيع، تسترخي تمامًا وتنخرط في البكاء.

****

جذوة
(٣)

اليوم دق الهاتف على الطرف الآخر كانت هالة: ريم اصحي بسرعة. هامر عليكِ بعد ربع ساعة.. الموضوع مستعجل يا ريت ما نتأخرش يا ريم...من فضلك بسرعة

- خير ما الذي حصل. من فضلك قولي...

-سناء انتحرت... نقلوها مستشفي الجامعة كنت أتصل بصالون التجميل. عرفت ما حصل، كمان هاتفها مغلق، قالوا حالتها خطيرة.. رمت نفسها من البلكونة!

تنقبض ريم جدًا تردد: اللعنة عليك يا سعد وعلى أمك البغيضة! لابد أن شجارًا كبيرًا قد حدث. فآذت المسكينة نفسها. هل تموت سناء؟ هل ستنظر إليها النظرة الأخيرة بعد أن يلقي الموت بظله على وجهها؟ هل أصابها نزيف داخلي وجعل شفتيها تزرقّان، ربما تكسرت ضلوعها أو تهشم رأسها الجميل، يا إلهي، لا أرغب أن أراها تموت.

هل يا ترى يضع الموت حدًا لبؤس حياتها؟ تعرف جيدًا أن هالة تستطيع تحمل ذلك الموقف أفضل منها، ربما لصلابة مشاعرها، أو لأنها لم تحب سناء يومًا ما بل كانت تحتقرها أحيانًا، وتبغض ضعفها وانسحاقها أمام زوجها سعد. حين كانت ريم ترى سناء رفيقة أيامها لسنوات كثيرة، كانت سناء الشاهد الصامت على حديثها مع هالة. كانت ميزتها أنها لم تكن لتتفوه أبدًا بحديث الزبونات. سناء كانت بئرًا عميقًا لم يعرف سره أحد!

أبلغت إدارة المستشفى الشرطة بحضور مريضة مصابة بكسور ونزيف، كانت سناء ترقد في قسم الطوارئ، مصابة بسجحات ظاهرة ونزيف داخلي، يظل الأطباء يحاولون إنقاذها بكل استطاعتهم. يدخلون الغرفة بمعاطفهم البيضاء. وتهرع الممرضات بطاولات عليها محاقن وأدوات جراحية وعبوات سائلة.

****

في الممر الطويل الأبيض، كان سعد يبكي بحرقة، يروح ويجيء مضطربًا، يخبط الجدران أحيانًا بقبضته ويهذي، وأمه واقفة على الباب بملابس سوداء مثل صنم لا يظهر على وجهها أي تعبير، وهالة تروح وتجيء ببطء. بينما تنفث دخان سيجارتها في الهواء بعصبية، تتوقف بين الحين والآخر ثم تقف وترفع سبابتها في وجهه والسيجارة تتأرجح بين شفاهها من فرط الغضب وارتعاش يدها، ثم تتوعده بأنها سترسله وراء الشمس لو ماتت سناء، كانت ريم تنتظر معها وبصمت أعمق وبألم عميق، أما هالة فكانت تكشف لها عن وجهها الشرس الذي لا تراه بحكم الصداقة. - هاضيّعك يا سعد، انت وأمك قتلتوها.. أنا عارفة إنك بتتعاطي الحشيش والترمادول والآفيون. وهاشهد ضدك. ومش ها تشوف رصيف الشارع لحد ما تتعفن في السجن وتموت. ها تدفع ثمن ما فعلته يا كلب ياجبان هاشهد إنك قتلتها عشان ما رضيتش تديلك فلوسها يا عَرْص! هاشهد إنك كنت بتجبرها تبيع لحمها لتجار الصنف اللي بتتعاطاه. وعشان تاخذ جرعاتك بالمقابل. هاخليك تسف التراب يا غضنفر. وهاعمي عينين أمك عليك من العياط يا حيلتها. يواصل سعد نحيبه خوفًا من تهديدات الست "هالة" كما يناديها والتي يعلم جيدًا أنها قادرة على تنفيذ تهديداتها، كان يعلم جيدًا زبائن سناء وكثيرًا ما زارت سناء الست هالة أو الست ريم في البيت للشغل، وكانت تحتفظ برقميهما في المحمول الخاص بها،

يقسم سعد قائلاً: ورحمة أبويا ما مدتش إيدي عليها يا ست الستات. هي رجعت البيت لقيتها اتخانقت مع أمي زي العادة بس راحت فجأة رمت نفسها من الشباك – نعم!!! مش مصدقاك.. إنت حيوان، إنت وأمك.. كنت بتضربها وتعايرها إنت وأمك بقلة الخلف لحد ما جننتوها! إيه اللي قالته لها أمك الحرباية لحد ما خليتوها انتحرت...قول...انطق! – والله و لا اعرف صدقيني.. أمي ست طيبة يا ست هالة.. ده كان مس شيطاني بيصيب سناء ويخليها تعصى عليّ. وآخرها إنها عملت العملة السودا دي. صدقيني، سناء ممسوسة من يوم ما خدتها.. صدقيني يا ست، أنا كنت بحب سناء، يمكن قلة الفلوس جننتني أحيانًا وكنت بضربها، بس ما تهونش عليّا أبدًا تموت. هي من ناحيتها كمان، عينها كانت بتعايرني في الرايحة والجاية،حتى في الأيام الأخيرة.كانت عاصية ومكنتش بقرب لها أصلاً. ورحت لشيخ مبروك قال لي : انت مربوط يا سعد. تعالى اقرا لك وامسح عتبتك بشبّة وفاسوخة لفك العكوس. وكانت سناء بتمسح عتبات البيت عشان تفك العكس، لكن أمي كانت فاكرة إنها بتسحر لي وإنها ربطتني عشان ما اسيبهاش... لكن سناء كانت بريئة... صدقيني سناء كانت بريئة. أمي هي السبب، ماكنتش بتفوّت لها حاجة. سامحيني والنبي يا ست. ندر عليّا لو قامت بخير مش هامد إيدي عليها تحت أي سبب..

– بس ششش يا حيوان! لما سناء تقوم بالسلامة مش ها تشوف ضفرها أصلاً، وبرضه هاتتجرجر في المحاكم يا عرة الرجالة. انت وقعت في إيدي ولا حد سمّى عليك! اتلقى وعدك مني يا حيلة الغالية.

في فورة الحديث يخرج الطبيب قائلاً: البقية في حياتكم لم نستطع إسعافها، هبوط في الدورة الدموية ونزيف شديد بسبب ارتطام رأس سناء بالرصيف وكسر في الجمجمة، إضافة إلى مضاعفات الكسور.. الله يرحمها. حضر أشخاص من البوليس بثياب مدنية وبثياب رسمية، وحرروا محضرًا وقّعه أطباء

المستشفى، وتم تحويل المحضر إلى النيابة العامة، جاءت أيضا "المِغَّسلة" وقامت بتجهيز سناء. أختها من بلد قريبة وإحدى خالاتها وزميلة لها في مركز التجميل حضرن الغُسل، بينما غابت حماتها وأخوات زوجها. تحظى الراحلة، اليوم فقط، بمن يعتني بها، اليوم فقط تجد من يغسل لها شعرها وقدميها ويلبسها ثياب الرحيل، يعطر كفنها، ربما ببعض القسوة، فهي لن تمنح البقشيش....

******

انطلقت التلاوة في بيت سعد من إذاعة القرآن خافتة، وراء الباب، بينما تحلّقت عدة جارات في صحن الشقة الصغيرة، لم يظهر أحد من أهل سناء، لم يكن لها أحد؛ وبالتالى قام زوجها بالعزاء، جلست أم سعد في المطبخ متشحة بالسواد، تهرس خبزًا عفنًا مبلولاً كالعجين، فوق بعض الذرة المجروشة والفول المدشوش لتفوح رائحة كريهة. من أجل إطعام صغار البطات التي تربيها، وبعض الفراخ السوداء والبيضاء والبنية وذات اللون البرتقالي. كانت سناء قبل رحيلها قد اشترت لها فروخ تلك البطات من إحدى الجارات في عيد الأم تزلفًا لها، ونفاقًا لاتقاء شرها. تربط أم سعد رأسها بقمطة من القماش تستقر خلف أذنيها التي يتدلى منها الحلق الفضة المخرطة ذو الشكل الهلالي... في صالة البيت بعض النساء أخفين مبالغ اقترضنها من سناء قبل رحيلها باعتباره سرًا لا يجوز إفشاؤه حتى لا يجلب لعنة أم سعد على الراحلة. التي ستُتهم ببعثرة المال وزوجها محتاج، وربما سعدت نفوسهن بسقوط الدين بسبب رحيل المغدورة...! وقفت ريم على الباب وألقت السلام... طلبت من أم سعد رؤية غرفة سناء لقراءة الفاتحة.- لمّا يرجع سعد يا هانم مش عاوزين مشاكل. الأوضة أوضته ومحدش يقدر يدخلها إلا بإذنه.. ابني بقى خلقه ضيق وعصبي، البنت جننته عايشة وميتة! والست هالة مش رحمانا برضه.. كلميها يا ست هانم، قولي لها

تتقي ربنا فينا؛ دي سناء كانت زي بنتي ودمها مبردش لسه في التراب... ترسم أم سعد بعض علامات المسكنة وتحاول حلب عينيها لتبكي بلا فائدة. تبدو كممثلة فاشلة في مسرحية ركيكة. صمتت ريم وهي تعلم جيدًا أن سناء كانت ستبيع دمها بعد رحيلها كما باعته في حياتها، وأن الشاة لم يعد يفيدها القصاص من قاتلها بعد ذبحها!في الممر، إلى الغرفة الداخلية، الأرض تغص بالمياه. تفوح ريحة "سمكة النبي" التي تشبه رائحة الخل. حكت سناء بنصيحة من بعض النساء أنها اشترت سمكة تسقيها بالشاي فتنشق على نفسها لتنجب سمكًا بحول الله وقوته. إنها إحدى أساطير الإسكندرية. انتظرت سناء كما نصحوها وانشقت السمكة فعلاً عن نفسها وملأت البيت بالرائحة الكريهة، لكنها كانت ترفض أن يراها أحد كي لا ينقطع عنها الخلف وينقطع الرزق أيضًا عن البيت. ربما ستلقيها الآن سيدات الدار، أو سوف يهدونها لإحدى الجارات العقيمات.. هذا البيت مليء بأطفال إخوة سعد. و"سِلفة" سناء القصيرة تمسك بمقشة وتنظف الأرض بحماس شديد، يداها المعروقتان تلتفان مثل كومة من الحبال المعقودة حول عصا المقشة، كانت كأنها تكنس بهمة آخر ما تبقى من أثر لسناء من الوجود!.بينما تعقد إيشاربًا على رأسها ينزل قريبًا من حاجبيها ويرتفع فوق مستوى الأذنين جامعًا الشعر الأكرت المخضَّب بالحناء في الخلف لتبدو المرأة النحيلة شبيهة بسفاحات الإسكندرية القدامى ريا وسكينة. أما السِلفة الأخرى امرأة قصيرة، بيضاء وبدينة قليلاً يبدو على ملامحها البلاهة. جلست بكسل ممددة ساقًا أمامها تنتهي بأمشاط أقدام قذرة، بينما تطوي الساق الثانية تحتها. وتلف رأسها مثل المرأة الأولى. تُطعم طفلة قذرة باكية تحبو في أرجاء البيت بملعقة صغيرة، وتنهمك في تقطيف أعواد الملوخية، قامت بعد قليل متثاقلة ثم اشعلت البخور قائلة: نبخروا شوية على روح المرحومة.

*****

اختفي كل أثر لسناء بمرور الوقت. بصماهًا على الأكواب، عَرقَها في الملاءات، رائحتُها من الغرفة، حتى ابنتها أعطاها سعد لشيخ في الشارع ليتعهدها بالتربية حتى يظهر من يستلمها من أهلها... لأن أحدًا لم يطلبها... كأن سناء لم تكن على ظهر البسيطة يومًا، قرأت القرآن على طرف كنبة بلدي متهالكة. وأنـــا أركز أن أتجاهل تلك الروائح العالقة. براز الحيوانات والمياه العطنة وقدر الفول الذي يفور على النار ثم انصرفت..الأيام بعد رحيل سناء لم تكن مثـــل الأيـــام قبلها. شيء عميق انكسر في روح ريم. لم تستشعر تلك المرارة الهائلة من قبـــل. تمضي وقتًا طويلاً كل يوم في اجترار صورة سناء، وانحنائها الذليل على أقـــدام الزبونات في المحل، الكدمات التي توشي جسدها، العرق المتصبب من خصلات شعرها، حرجها ولعثمتها، كوب الشاي الذي لم تكن تكمله من ضغط العمل، تلوم ريم نفسها كثيرًا. السؤال يمزقها، هل كان باستطاعتي حمايتها؟ هل كنـــت أقدرا؟. ياتري هل سخرت يومًا من معاناهًا مثلما فعلت هالة كـــثيرًا، كنـــا نتحدث كثيرًا، ثم نلقي عليها لومنا، وتدفعها رياح سخريتنا إلى هاوية الصمت الخجول، ربما لم تكن سناء حقيقة تستطيع أن تفعل شيئًا لإصـــلاح حياهًـــا، لم تكن تقدر على التمرد على سعد أو على أمه، ربما لم يكن جـــديرًا بهالـــة أن تضغط عليها لتكون امرأة أخرى. كان حرياً عليها أن تحترم خوفها وضـــعفها لكن ماذا فعلت أنا؟؟ اكتفي بالنحيب عليها في صمت؟. بينما تكفلت هالـــة بمتابعة القضية وبمصاريف محامٍ من أجل أهل سناء بينما شهدت ضد سعد أنـــه كان دائم الضرب لها وأنه كان يحاول الاتجار فيها وادَّعت أن ســـناء أخبرهًـــا

بذلك قبل موهَا! كانت هالة تعلم جيدًا أن ادعاءاهَا كاذبة وأهَا قد تودي بسعد للمشنقة لكنها كانت تنفذ منطقها الخاص في العدالة،كانت تُقيم العدالة علـــى طريقتها... عدالة ربما كانت تحرك نهر البؤس الذي استقر في قاعـــه كســـمكة ميتة. تتحرك التيارات الباردة المظلمة في حركتها وتقلبها كيفما تشاء، اكتشافي لتحول هالة أو للقسوة الشديدة التي تمتلكها كيف تستطيع رغم بغضها الشديد لسعد أن تشهد عليه زورًا أنه قتل سناء؟؟ هل كانت تحب في أعماقهـــا ســـناء وتتعاطف معها؟ هل تكفّر الآن عن إحساسها بالذنب تجاه سناء بالانتقام مـــن سعد، لم يعد يجدي الآن سوى الانتقام. تردد هالة دومًا "عشان سناء ترتـــاح في قبرها" هل ترى سناء تتعـــذب بعـــد موهَـــا كمـــا تعـــذبت في حياهَـــا!!

ربما لو كانت في الحياة كانت ستقف بجوار سعد في محنته وتدافع عنـــه حـــين يتهم بقتلها ! سألتها ذات مرة: يكفي إلى هذا الحد يا هالة... يكفي تمامًـــا، تعرفين أن قضية القتل ملفقة وأن الأمر كله مسرحية انتقامية. أنت تعـــرفين أن سناء انتحرت... ألا تخجلين؟ ألا تخافين من الله. لقد كان سعد زوجًا بغيضًـــا. استدارات هالة وقتها على مقعدها الجلدي هازئة مني: الإنسان له فرصة واحدة أن يتمركز في آخر نقطة في زاوية الشر التي تتيحها له الحياة والقـــدرة علـــى الانتقام، والتشفي وإذلال الآخر، هذه الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة في الحياة، مرة واحدة فقط لهذه الفرصة، بعضهم يضلون الطريق إلى ضـــحاياهم، لكـــني لست من الضالين!! دعيني انتهز الفرصة كي لا أندم علـــى تضـــييعها، ومـــن يستحق أن أسحقه تحت يدي غير سعد؟ احمدي الله يا ريم إني وجدت الشخص المناسب!! أنا لا أخاف من الله لأني لا أغضبه. أنا أنفذ إرادته. أنا يده لســـحق الأشرار وأنت تعرفين أن سعد كان حقيرًا معها. من منا الذي لا يخاف الله يـــا ريم؟ أنا أم أنتِ؟ أليس القصاص حياة لأولي الألباب. أين لبك اذن يا صديقتي. هل نلقيها في حفرة ثم تنهمر دموعنا حسرة عليها بضعة أشـــهر ثم ننســـاها!!

الله يا ريم لا يرغب أن يكون العالم قبيحًا. الله لم يخلقنا لإذلال بعضنا البعض. هل القتل هو أن أطلق فقط عليكِ رصاصة؟ هل القتل فقط أن أدفعك من النافذة أو أن أصدمك بسيارة؟ القتل له صور أخري كثيرة. هناك القتل بالإهمال. القتل بالتجاهل. القتل بالسلاح. القتل بالقسوة. القتل بالحصار. الموت أيضًا ليس خروج الروح يا عزيزتي. هناك أحياء كالأموات يا عزيزتي.. وسناء آخرهم.. فهل القاضي والجلاد قتلة؟ _ لا تقلقي على علاقتي بالله.. أنا فقط يد العدالة الإلهية. تنجح هالة بهدوء بالغ في التبرير تلقي بكلماتها بهدوء سلحفاة وهي تشرب كأسها أو تبرد أظافرها أو ربما تدور متأرجحة على كرسيها الدوار. كنت أحدث حسام كثيرًا عن هالة والقضية والمرحومة سناء. بينما يرد ببرود لافت وبابتسامة ساخرة على أحزاني وحيرتي ولوعي الذي لا ينتهي،كانت عيناه تلمعان بوميض غريب حين ترد سيرة هالة وتصرفاتها التي أراها غريبة وغير مبررة، كان ذلك الوميض يقلقني ويعذبني. حسام كان حريصًا على عدم الإشادة علناً بالتحبر الذي أصبحت عليه هالة احترامًا لمشاعري ربما يخفي هو الآخر وجهًا آخر لا تعلمه ريم حتى الآن!

****

سيارة تسير في عمق البحار، ريم خلف المقود تتابع السيارة، المسير صوب الداخل، تهوى نحو العمق الأزرق بسرعة يرتفع الظلام، يسود المشهد حيث لا حياة ولا هواء لا يوجد إلا شيء، دقات قلبها تعلـــو كأنـــه ســيخرج مـــن ضلوعها، إحساس بالغرق في سائل بارد لزج. إنه ليس البحر أبدًا. إنه عمـــق أزرق خطير ومجهول، ربما هو بحر غريب لا أعرفه من قبل، من مكان خفـــي رجل زنجي يظهر شبه عارٍ، عضلاته مشدودة، يغطيه العرق، رائحتـــه كريهـــة يراودها عن نفسها، مستلقية منهكة تمامًا وماء البحر في حلقها ونار مشتعلة في جفونها، تقاومه ريم بعنف هزيل، تحاول الصراخ، صوتها غير قـــادر أن يغـــادر فكيها، ثم تموت لا تعرف كيف لكنها تعرف أنه الموت، تشعر فجـــأه بالخفـــة والسلام، تتحرر وتنطلق من غير وجهه، تعبر نفقًا طويلاً آخر، ضوءٌ بـــاهر، ثم لاشيء. تبقى هكذا معلّقة الجميع في مكان تبحث غالبًا عن ابنها كريم، بدلـــة أبيها الصيفية ذات النصف كم ملقاة على سرير بعيد. أمها جاحظة العيـــنين في أحد زوايا المشهد، وفي الجهة الأخرى باب كبير موصد، ربما يكون الجحـــيم، هي بين الاثنين حائرة لا تعرف لها وجهة وقشعريرة تحل محل الراحة والتحـــرر هكذا باتت ريم في ليلة أخرى مزعجة بعد وفاة سناء، تدس رأسها تحت الغطاء فور قدوم حسام، تكتفي بسماع دقات حذائه التي حفظتها مع مرور السنوات على الأرضية الخشبية، عدد السكات التي يغلق بها الباب ليلاً، أصـــوات فـــتح الثلاجة. ثم تهل رائحة عطره على مدخل الطرقة المؤدية إلى غرفة النوم... تسكن دقات حذائه على باب غرفة كريم ليدلف على أطراف أصابعه طابعًا قبلة على جبينه حتى يستقر في غرفة النوم في النهاية. يخلع حذاءه، يضع مفاتيحه وهاتفـــه

النقال على "الكومود". يلقي بنظرة على المرأة النائمة في فراشه. لا يعلم في أي عوالم هي... وأي رؤى ومنامات، تفزعه، تحارب. يجهل تمامًا أي عصف يأكل روحها يومًا بعد يوم.. يندهش أحيانا حين تصرخ بصوت خفيض بجواره..بابا...بابا!! انتهى ذكر سناء فجأة، كأنها شبح. زميلاتها بالكوافير نسينها، حفظت القضية وخرج سعد ببراءة حين استطاع إثبات تواجده على القهوة أثناء موت سناء، علمت ريم أنه خطب فتاة أخرى عقب إغلاق القضية ليحقق حلم أمه بإنجاب صبي من بنت بنوت، ريم لم تتحدث عنها يومياً وإن فضَّلت تغيير الكوافير الذي تتعامل به لتوقف عذاب تذكرها فيه. أما هالة فواصلت انغماسها في العمل، وأرسلت العيش باللحم وقُرص الرحمة على روح سناء بشكل منتظم لفترة ثم توقفت بعد حين، السلوى الوحيدة لانغماس الجميع في مشاغلهم هي صداقتها العميقة مع باهر، كان الوحيد الذي يسمع لها باهتمام ذكرياتها عن سناء وعن رحيلها المفجع، عن أبيها الراحل إلى بلاد غريبة، عن انكسارها وراثه، عن أمها القلقة الملتاعة مثلها.كثيرًا ما كانت ريم تضبط إيقاع روحها، يتجه إلى موجة اللوع التي طالما كرهتها في أمها. تحدثه عن كريم.. كيف أن حضنه يشفي روحها وكيف أنها تتمنى أن يكون كريم أبيها الذي خرج من رحمها. تحدثه عن انشغال حسام وجفوته، عن هالة وما فعلته في سعد وأمه. الوحيد الذي لا يسخر من حديثها ويربت على روحها عند الحاجة هو باهر، في الصباح يطمئن عليها هاتفياً ويتابعان الحديث عن الجديد في الديكورات أو معارض الفن التشكيلي الجديدة، أو حفلات الأوبرا في المدينة الصغيرة، في المساء تختلط صورة الصديق بالحبيب في أحلام ريم تمتزج الرؤي بالكوابيس. تتفتت طاقة المقاومة لتنسحق عظام روحها كل ليلة؟ أحيانًا كانت تطاردها كوابيس الظهيرة، صورة سناء، أومناجاة من أبيها في سجن يشبه "جونتانامو" لمعتقلي الحروب العرب، وفاة كريم في حادث سيارة،

ومشاهد فاحشة بين هالة وحسام. اللعنة هل يتركها حسام من أجل هالة في يومٍ ما... ليتها تختفي هي الأخري... ليتها تلحق بسناء.. ليس من العدل أن تفقد المرأة رجلها من أجل صديقتها أبدًا. هكذا تحدث ريم نفسها وتطمئن هواجسها!!

*****

الليلة وفي التاسعة تلتقيه، الليلة يمكنهما التتره على البحر دون أن تظهر ريم بجواره في السيارة العملاقة حيث الزجاج الداكن مرهقة، بوجه ذابل خالٍ من أدوات التجميل، وأقدام تجرها بصعوبة تخطو إلى داخل الفيلا، يستقبلها باهر بوجه بشوش للوهلة الأولى ثم يبدي انزعاجه حين يتبين ملامحها المنقبضة في غرفة الصالون الجانبية أمام أكوام من الكتالوجات تجلس صامتة -مالك حبيبتي حصل إيه؟ - مفيش... مجرد إني منمتش كويس... احكي لي انت إيه الأخبار.. يجثو أمامها على ركبتيه. يطأطا رأسه بتذلل، يمسك أطراف أصابعها ويعبث بها صامتًا.. تلاحظ شعرات بيضاء في مفارق شعره. لم تلحظها من قبل.. لا طلاء على أظافرها ولا مساحيق على وجهها.يتراجع بظهره إلى الخلف ممعنًا النظر إليها مرة ثانية. - زي ما تجي نتكلم بعدين... لكن أنا حاسس إنه في كلام كتير لازم يتقال. تسكت وفي قرارة نفسها تتمني لو أنه يلح عليها بالسؤال لتنفجر باكية. المشكلة أنها لا تعرف بداية للكلام ولا تعرف أيضًا نهاية. إن ما ترغب في البوح به يبدو كحدوته دائرية لا طرف لها. وهذا ما يصعب عليها البدء في الكلام. لكنه لا يقتل الرغبة في أن يكتشف أحد طرف الدائرة. أن يصبر على تلك الحيرة، أن يجتث هذا الخوف. أن يقتلع التردد كما يقتلع المقاتل عيني غريمه أحيانًا. ينهض بكامل أناقته ويستدير تجاه المكتب. ينظر إلى لوح ورق هندسي كبير يبدأ في فرده أمامها، يجيب بفخر: تخيلي تصميم، فكرته الأساسية أن البيت وحدة سماوية من وحدات الفضاء الخارجي، أحد الكواكب، الألوان

والسقف بألوان السماء، المقاعد والكراسي كأنها سفينة فضـــائية مـــن الأوان الفضي والمعدني والأسود والنيلي. وفجأة تنفجر ريم في بكاء مريـــر تفشـــل في السيطرة على نفسها، يحملق باهر باستغراب شديد، يربت على كفها محـــاولاً تهدئتها دون أن يسألها:- اهدي من فضلك اهدي، يأخذ رأسها في حضنه ولا تمانع، يربت على رأسها محاولاً احتوائها، كانت آلامًا مبرحة تدك مفاصـــلها، وهن شديد يثقل جفونها وصوت مختنق بالدموع يسيطر عليها بشـــكل تـــام- آسفة آسفة... آسفة يا باهر، مش عارفة مالى حاسة إني محطمة تمامًا. في الضفة الأخري من نهر الغرفة كان هناك جوع قوي يجتاح باهر إليها كامرأه.. عيناها المغسولتان بالدموع، صوتها المقاوم ويداها المستسلمة، رائحة عنقهـــا العطـــرة، الحرارة المنبعثة من جسدها يشعلانه، يرفع وجهها ويلثم خدها وينتقل بـــدون حسابات إلى شفتيها يلتهمها بنهم يستطعم حلاوة ريقها لينحل جسدها بينمـــا هو يشتعل أكثر، يعلم جيدًا أن ريم ليست فتاة ليل، إنها مجرد امـــرأة وحيـــدة متألمة. كأن هناك موجة بين قبلاته النهمة وغواية استسلامها، يشعر أنها علـــى وشك الذوبان، يخاف أن تتوتر تلك اللحظة العظيمة بينهما بأن ترفضه فجـــأة، يربت على كتفها ويذهب إلى المطبخ ليعد لها مشروبًا باردًا ويجلب قطعة مـــن الحلوي، لايمكن أن تذهب هكذا والأمر معلّق! هل يعتذر لها، لا يعتقد في قرارة نفسه أنه قد أساء إليها، لا يرغب أن ينتهي هذا التحول الذي حدث الليلة إلى حادث مؤسف يوجب الاعتذار!! أحضر طبقًا من حلوي الجيلي وقدمه إليهـــا من فضلك كلي أرجوكِ.... شـــكلك مـــاكلتيش حاجـــة مـــن الصـــبح.
- تطرق رأسها مش فاكرة فعلاً. - تعالى نخرج، لازم نشم هوا مـــنعش ده هيخليكِ تتحسني كتير.أطرقت رأسها ثانية -حاضر. في السيارة قصد منطقـــة المعمورة الهادئة بعد المرور على الطريق الطويل الذي تتراص على جانبيه بساتين الموالح والجوافة والبرتقال وغيطان الخضار. في هذا الوقت من الســـنة حيـــث

يتركها سكان الصيف إلى مدهم البعيدة وتبقي خالية ليجلدها الشاطىء بسياطه شهور الشتاء، يدلف من البوابة الكبيرة مجتازًا رجال الأمن في الشارع العريض وصولاً إلى منطقة الشاطىء حيث السكينة والإضاءات الخافتة لقلـــة الـــرواد. كان الخروج حلاً للتوتر والصمت الذي خيَّم على الاثنين، حيـــث الانشـــغال بمراقبة البحر وسماع الموسيقى. أطفأ باهر محرك السيارة وتوقف قبالة الشاطىء. ترجل الاثنان خطوات مجتازين السياج المعدني الذي يحيط بالحدائق الصغيرة التي تفصل بين السيارات الرابضة كدبابات جيش صغير وبين الشـــاطىء، وصـــلا للشاطىء الرملي حيث سار ... كمعلم حكيم خلفه تلميذته. ثم توقف قبـــل الشاطىء بخطوات. أخذ يتأمل البحر حيث تلوح في الأفق الأضـــواء الصـــغيرة للمراكب الصغيرة الغارقة في الظلام والبعد. حيث يختفي الأفق ويتحد ظـــلام البحر بالليل ويصبحان مثل نفق مظلم لانهاية له. استدار بكتفه للحديث بعـــد بضع دقائق ثقيلة، سارت هي في اتجاه آخر لتجد صخرة كـــبيرة واضـــطر إلى اللحاق بها، ترسم ابتسامه واهنة، أنا بخير ما تقلقش. يربت على كتفها احكي لي من فضلك مالك؟؟! - أبدًا مفيش منتهى الوحدة، أنا حاسة بمنتهى العجـــز والوحدة ده اختصار الأمر!يحاوط خصرها بيده من الخلف فتدفع يـــده بعيـــدًا _ من فضلك يا باهر من فضلك!! مســـحة مـــن الحـــدة تمتـــزج بصـــوتها. - آسف آسف جدًا... أنا بس كنت..- أوك، تستجمع قوتها وتسدد نظرتها إليه.. باهر إحنا أصدقاء وأنا بمر بوقت صعب لكـــن لازم تفهـــم إني زوجـــة مخلـــــــــــ.... يضع إبهامه على شفتيها ليغلقهما بينمـــا ترتســـم ابتســـامة منتصرة على وجهه. يحاول جاهدًا إخفاءها.. مع أنها تلمـــح الابتســـامة إلا أنّ شيئًا بغيضًا يلمع بين عينيه. تراه وتحاول إنكاره ربما دناءة أو نظرة مكر ذئب لم ترها من قبل.- ريم حبيبتي أنا مطلبتش منك حاجة. انت ليه بتفسري الأمـــور غلط! يجتاحها الارتباك.... تبقى قليلاً تسمع وشوشة البحر وتراقـــب إضـــاء

الشاطىء المقابل. لا فائدة، العالم على رحابته يبدو ضيقًا، كل شيء لم يعد إلى ما كان عليه بعد رحيل سناء وسفر حسام وانشغال هالة... تُلجِم فمها قبل أن تقول إنه أصبح جزءًا من همها .وأنها لم تعد ترغب في الاقتراب منه ولا تقوى على الابتعاد.. تَلجُم فمها كي لا تخبره بحقارة خالها الذي أكل إرث أمها وبدناءة زوجته التي قلبَّت زوجها على أخته.. وكي لا تخبره أن شوقها إلى أبيها يقتلها وأنها تتمنى عودته ربما لتنتقم منه على الغياب فتقتله.. تصمت وأخيرا تطلب منه الرحيل للمترل.

****

يكتسح حسام انتخابات النادي بسبب ثقل منصب والده وخبرته في مجال الانتخابات لفترة طويلة، يشعر برضى هائل، دفع به والده في مواجهة أعضاء مجلس إدارة أكبر منه وأكثر منه دراية في مقامرة نصف محسومة، لكنه ربحها. وبينما يستعد حسام للسفر إلى أمريكا، لمناقشة ورقة علمية عكف على دراستها وتحضيرها منذ شهور، يستعد أيضًا أخوه للزواج، الذي تعكف الأسرة على التحضير له، ربما يصيبه بعض التوتر من ذلك. لكن مبعث قلقه الأكبر هو الحالة النفسية المتردية التي تمر بها ريم، لا يجد التفسيرات الظاهرة عن موت سناء أو انشغال هالة عنها مبررًا لانقاطعها عن الطعام، فريم بالكاد تأكل أو تشرب قهوة، تنام لأوقات طويلة، عادت للتدخين بشراهة وزهدت الخروج من المترل نهائياً،كان شعوره بالتقصير تجاهها والانصراف عنها يزعجه، إلا أن انغلاقها على ذاتها حجزه في الزاوية، كانت أكثر إصرارًا على البقاء في شرنقة الصمت التي نسجتها حول ذاتها، وعلى حسام أن يضمها إلى قائمة التزاماته الفترة القادمة ويوليها بعض العناية والاهتمام.
المطر يطرق النافذة بينما الفراغات في ألواح الشيش الخشبية تدفع ستائر

الشيفون للخلف فترجع كأنها بطن حبلى بالهواء، ريم تحتضن ركبتيهـــا علـــى السرير، وجهها أبيض شاحب كالموت تَنْفُث سيجارتَها بغضـــب وتحـــدق في نقوش الملاءة. بينما يرتب حسام حقيبته يدس فيها ملابسه وأوراقـــه وجـــواز سفره. - أنا حاسس يا ريم إنك مش طبيعية، حالتك وحشة وقلقاني عليكِ.- أبدًا أنا بخير..شويه.. بس كده! - أنا عارف إني مشغول....وهالة كمان بعيد ومشغولة وانت لوحدك وقت طويل، أوعدك لما نرجع نروح أسبانيا أسبوع. لو ما بدأناش التحضير للجنة الماليات بالنادي انت عارفة قد إيه الموضوع ده مهم - متشغلش نفسك بيا أنا بخير. يطبع قبلة على جبينها، ويربت على كتفهـــا قائلاً: هاتصل بيكِ كتير. تمسح خدها مكان القبلة وتنظر إلى باطن أصـــابعها وكفها..تشد قميص نومهاالحريري المتزاح إلى أعلى قليلاً لتداري المســـاحات المكشوفة.تعاود الشرودمرةأخرى ثم تنتبه على صوت إغـــلاق بـــاب الشـــقة خلفه!!!

****

لم تنتبه ريم أين تنزلق قدماها، لقد ملأ باهر كيانها واستحوذ على تفكيرها كلية، وكانت أيضًا سعيدة بهذا الانزلاق في حقيقة الأمر. الوقت الذي تمضـــيه بصحبة باهر هو ما يجعلها تصمد في وجه الزمن وتقلبات ذاتها وحيرتها، اكتفاؤه بتلك العلاقة غير المؤطرة أراحها كثيرًا، لم يطلب منها الطلاق في أي يـــوم ولم يلمح بغيرته من حسام وإن كان ذلك يثير غيظها أحيانا وتســـاؤلها في بعـــض الأوقات حتى أصبحت تتعمد في بعض الأحيان ذكر اسم حسام كثيرًا في محاولة يائسة لاقتناص لمحة ضيق أو انقباضة غضب من على وجهه لكنها لم تنجح أبدًا.

******

تمضي النهار في غرفتها المظلمة تناجي الله، لماذا يا رب ماتت سـناء. ألم يكن بالأجدر أن يموت سعد، لما سناء يا رب؟! يا تري لو رحل سعد كانـت ستعيش تعيسة بقية حياتها؟ وربما قاطعت الرجال وانكفأت على العمل حـتى انحني ظهرها. وربما زوَّجتها حماتها لأحد من أخوة سعد نكاية في إحدى كِنَاتها كي لا تحرم من يد تعاونها في أعمال البيت. هل كان موتها رحمة لها؟ لماذا يكون الموت رحمة، ما هذا التبرير الغريب؟ لماذا لم تحصل سناء على رجـل يحبـها أو طفل يسعدها؟ لماذا توجب عليها تحمل هذا الشقاء؟ كيـف شـعرت حـين انكسرت جمجمتها؟ هل رأت نفقًا أسودًا في نهايته نور؟ هل شعرت بألم رهيب أو بسعادة؟ هل سمو ونورانية؟ أتري ستعاقبها أم أنك ستتجاهلها في موتها كما تجاهلتها في حياتها؟ هل مات أبي في أوروبا؟ هل طعن أم يعـيش في أحضـان سيدة أوروبية في بيت أنيق ونسيها تمامًا؟ لماذا جعلته أبي بينما منحت هالة أبـا قوياً؟ انت تعرف يا الله كم أشعر بالفقد منذ اختفائه؟ كان عليك أن تجعلنـا نقتسمه سوياً فنكون أختين بينما تحرم أبي من الإنجاب؟ أعرف أني لن أحصـل على إجابة منك.. ستتركني أنهش ذاتي، ستلفظني كما لفظني الآخرون؟ لقـد منحتني حسام وكريم وهالة وفي الوقت المناسب أرسلت باهرًا لكنك لم تأخـذ رأيي، لقد حرمتني من الاختيار.. أنا الآن لاحيلة لي إلا الاستسلام التام... أنـا منهكة حتى النخاع.. جاهدت ريم لكتابة مشاعرها في تدوينات شخصية لكنها لم تفلح، كانت اللغة وحشًا عصياً على الترويض. الاستعارات والمجازات، الكنى والتشبيهات مثل آلهة غاضبة ومتصارعة. تأبى الانصياع لقلمها. المشـاعر مـن جهة أخرى أقل من قدرتها على الكتابة، بينما البوح مسجون خلف الخـوف الأزلي من كل شيء، من الإحساس بالذنب، من الخوف من المسـتقبل، مـن العجز، من الهزيمة والانكسار، كانت الكتابة مهارة كالرسم لم تجـد الألـوان المناسبة تمامًا لترسم بها إرادتها في البوح من التخلص من الجنين المشؤوم للهزيمة،

من وحش الشجن الرابض بقسوة منذ رحيل أبيها. تفشل المحاولة ليلة وراء ليلة لتنتهي بالسقوط في سبات عميق.

****

تمضي الأيام ثقيلة لا جديد فيها إلا اتصال حسام من الخارج الـــذي ينـــهكها نفســـياً، مكالمات متكلفة عن الصحة والحال والجو وهل أنت وكريم بخير، وبقية تلك العبـــارات التي يكللها الاعتياد والروتينية... أيضًا اتصالها تباعد جدًا مع باهر، لم يعد هناك الكـــثير ليقال، شيء ما سقط بالتقادم بينهما، شيء ما فقد بالوقت. وهج ما انطفأ في العلاقة.. أما هالة، فقد أراحها نفسياً اختفاؤها الطويل. بقيت ريم لأسابيع في عزلة ذاتية اختيارية. حتى استيقظت في أحد أشد الأيام برودة ومطرًا على تليفونها المحمول يرن، كانت هالـــة المتصلة على الطرف الثاني – الحقيني يا ريـــــ.... ثم بكاء متواصل ومتشنج.... ريـــــــــم الحقيني باهر مات يا ريم.. باهر مات . عقدت الدهشة لســـانها! مات إزاي؟؟اتكلمي من فضلك...كنا سوا مع بعض إمبارح للفجر ووصـــلني للبيت وفي الطريق وهو راجع، اتقلبت العربية عالكورنيش بســـبب الســـرعة الشديدة. كنا متخانقين يا ريم ومات بسببي، أنا قتلتـــه يـــا ريم أنـــا قتلتـــه! سقطت على الكرسي من الإعياء والصدمة، خارت قواها، باهر مات، وكـــان مع هالة!! ليه..ليه مع هالة... ما الذي يدفع هالة لهذا الهلع وهي التي لم تبـــكِ من سنوات؟ في الطريق إلى هالة تتذكر أنها لم تقد سيارتها من شهور طويلـــة، منذ تعرفت على باهر، كان هناك رجلان يقودان نيابة عنها، تضبط دمعة حارة تنسال على وجنتها، تحدث نفسها أنها بالتأكيد من حزنهـــا علـــى صـــديقتها وتواصل المسير.تدق باب هالة بجرس متواصل، الأسئلة تكاد تفتك برأسها حتى تفتح هالة الباب أخيرًا في حالة انهيار لم تشهدها عليها من قبل. أخيرًا جيتي يـــا ريم...

- مالك.... إيه اللي حصل - باهر مات يا ريم..... مات بعد ما اتخانقنا خناقة شديدة.. أنا وباهر حبينا بعض من فترة طويلة... بس الفرصة مكنتش مناسبة أبدًا إني أحكي لك، أرجوكِ سامحيني. - تتجاهل ريم الاعتذار وتحت ملامح جامدة على وجهها وهي تبلع غُصَّة كبيرة وتقول حبيتوا بعض؟...ليه يعني؟ ارتبطوا يعني إيه؟؟ مش فاهمة! - ارتبطنا يعني حبينا بعض. أنا حبيت باهر يا ريم، وكنا مع بعض، إنت عارفة الشغل أخد كل وقتي والوحدة قتلتني، وباهر الرجل الوحيد اللي ظهر في حياتي وبذل مجهود كبير عشان يوصل لي، كنت بازوره في الفيلا نتناقش في التجهيزات لافتتاح الشركة، واتقرب مني وعلاقتنا اتطورت، لكن هو كان رافض ياخد أي خطوة رسمية، حاولت أقنعه يقابل بابا لكن.. تقاطعها ريم - يعني إيه علاقتكم اتطورت؟؟ تطرق هالة رأسها وتنهار على كنبة صغيرة وتشبك ذراعيها على مائدة مقابلة وتشرع في بكاء شديد، ويسود الصمت بعد عدة دقائق بينما ريم على أحر من الجمر تنتظر رد هالة. - ريم أنا في مصيبة، أنا حامل في ثلاثة شهور. وباهر مات وبابا لو عرف هيموت من الصدمة. أنا لازم أتخلص من الحمل ده بسرعة جدًا...لو كان باهر حيْ كنت سأجبره على الزواج. عشان أحصل على طفل حتى وماخرجش بخسارة كاملة!! تحدق ريم مذهولة: أي خسارة وأي مكسب؟؟ هل كنتِ تحبين باهر أم تريدين اقتناءه أم تريدين اقتناء طفل مثلما سعيتِ إلى اقتناء الشركة؟ تشرع أيضا في بكاء مرير وتتمتم: مش ممكن، إنت يا هالة مش ممكن!تابعت هالة: هل تريدين أن تعرفي ماذا حدث مع باهر؟! سأخبرك، لا شيء.. أما لماذا؟ فلأني كنت أشعر بالجوع إلى رجل... ليس بيني وبينه أي علاقة سابقة. أو أي مشاعر ودودة! ليس بيننا أية وعود ولا أحلام! أريد رجلاً ليس بيننا إلا معرفة واهية ضبابية قصيرة. رجلاً لا أنتوي أن يكون بيننا خطط أو مستقبل. ليس بيننا ذكريات ولم يكن زميل مدرستي الابتدائية، لم

نلةً معًا في طفولتنا و لم يكن ابن الجيران! خط الزمان علامات النضج علينا معًا، رجل لم يكن يومًا زميلي في مقاعد الجامعة أو رئيسًا لي في العمل.... أليس من حقي أن أجوع إلى رجل؟!! حتى لو أكن أعرفه فالتهمه هكذا بكل بساطة! ودون أية تعقيدات !كأي إنسان يشتهي قطعة لحم ساخنة في ليلة شتاء باردة ليس من الضروري أن يعرف من أية سلالة حيوان أتت أو فوق أي أرض رعت؟ ولا متى وأين ومن ذبحها؟.. كان الأمر رغبة جامحة..لكنها لم تكن مجنونة، كنت واعية تمامًا لما أريده من باهر...فقط أريد أن التهمه أو يلتهم أحدنا الآخر ثم ينصرف كل منا إلى حال سبيله..كان هذا هو الاتفاق الغبي الذي عقدته مع نفسي حين خطت قدماي خطوتهما الأولى إلى فيلا سان ستيفانو لكن الأمور لم تسر كما أريد. سلّمته نفسي و لم ألتهمه مثل أي امرأة رخيصة..لكن أحببته مثل أي امرأة بلهاء ودون أي ضمانات!! فقدت السيطرة على مشاعري وبنيت قصورًا في الهواء لكنها انهدت فوق رأسي حين أحببته دون أي منطق ولا أسباب معقولة!!. ما حدث أن كل شيء تحطم، صديق باهر وأحد أخواله الآن يستخرجون شهادة دفن لجثة الرجل الذي شاركني الفراش. يتابعون تكفين جسده. سوف يزجونه في قبر حاملاً معه حلمي في إنجاب طفل من رجل اصطفيه ولا يصطفيني. تتشرب أرض القبر بمائه الذي تشربه رحمي فيذهب حلمي معه سديً...

******

مرت أيام بعدها أفاقت هالة من البنج بعد إجرائها للإجهاض وأصبحت بصحة جيدة. مرت أسابيع استردت فيها كامل عافيتها. طويت الصفحة تمامًا وكفكفت دموعها بسرعة نوات الإسكندرية القصيرة. وتابعت عملها بالشركة، أسابيع قليلة مرت، لم تتحدث عن الأمر بعد ذلك. لم تكن تقول إجهاض كانت تستبدلها بكلمات وبدائل إنجليزية أحيانًا أو بصيغة الحديث عن الأمر المجهول الغامض المنسي ببرود مطلق. يغلفه تعالٍ مصطنع، إنها إحدى الهزائم العابرة التي تقبلتها بصمت ورضى! كانت ريم تحاول بجهد بالغ أن تستشف أي لمحة أسى على وجهها لكنها لم تظهر أبدًا، تحقيقات النيابة انتهت إلى أن الحادث قضاء وقدر، وأن أحدًا لم يقتل باهر في محاولة لإرغامه على بيع الفيلا كما قدَّم أحد أخواله بلاغًا. لم تسمح هالة أبدًا بالحديث عن هذا الموضوع وانغمست تمامًا في العمل. انهمكت ريم في القراءة في الفلسفات القديمة لفترات طويلة أثناء انشغال حسام، قلَّ شرودها، لكن قلبها مثقل بالغضب، وبقيت أسئلتها تنغص حياتها، لماذا لم يحبني باهر، هل يا ترى كان على علاقة بهالة أثناء علاقتي به؟ ما نوع الحديث الذي استدرجها به؟ هل حكى لها عن الفيلا وأشجار الفل وبحيرة السلاحف، هل حكى لها عن "موديلياني" ونسائه ذوات الوجوه الطويلة والرقبات النحيفات، وسوناتا القمر لبيتهوفن؟ هل حدَّثها عن السيد بيترو؟ أين ضاجعها اللعين؟ لكن سؤالها الأكثر إزعاجًا هل كان باهر يحب هالة؟!كل ما تذكره أنها لم تمر أمام تلك الفيلا بعد ذلك أبدًا وألقت أسئلتها في بئر النسيان. تمت.

أماني خليل ....نوفمبر ٢٠١٢

شكر

للصديق رافي عادل صايغ: مراجعة الجــزء المتعلق بجالية الارمن بالاسكندرية.



يقول باهر:

المصباح هو الكشف، والستائر هي الحجب.

وروعة العنصرين هو اللعب على التبادل بينهما كشف ثم حجب، حجب ثم كشف .

الإبداع هو التحكم في ذلك مثل البشر تماماً. الإنسان المحجوب تماماً مثل صندوق مغلق، قد يكون جذابا لبعض الوقت لكنه قد يفقد تلك الميزة بعد قليل، والإنسان المكشوف تماماً لم يعد يثير فضول أحد، لذلك أنا أفضل المرأة التي تعرف متي تنير مصباحها فتكشف نفسها ومتي تسدل ستائرها فتُحجَب، تعرف المساحات التي يجب أن تعطيها والوقت الذي تحتجب فيه، كالقمر تماماً لا يظهر طوال الشهر.

درجة الوهج الصادر من الروح الوثابة والوجه الجميل، تلك الدرجة لا تسمح بالابتعاد ولابالاقتراب، تعرفي، العين يا ريم، لا ترى في الظلام الدامس.

العين أيضاً لا ترى في ضوء الشمس، لذلك السيدة الذكية هي من تعرف كيف يمكنها السيطرة علي وهجها بحكمة ودهاء.



